

مكتبة
الأسرة
١٩٩٨

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال
الإبداعية

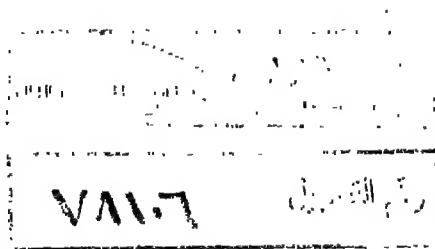
ثقوب في الثوب الأسود

إحسان عبد القدوس



ثقوب فى الثوب الأسود

ثقبوب فر الثوب الاسود



إحسان عبد القدوس



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك
(الأعمال الإبداعية)

ثقوب فى الثوب الأسود
إحسان عبد القدوس

الغلاف:

للغنان جمال قطب

الإشراف الفنى:

للغنان محمود الهنلى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التثويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان

إحسان عبد القدوس

بقلم إحسان عبد القدوس

● ولدت لأبى الأستاذ محمد عبد القدوس ولأُمى السيدة فاطمة اليوسف التى عرفت باسم «روز اليوسف».. وكلاهما فنان.. درس أبى الهندسة وبدأ العمل موظفاً فى الحكومة كناظر مدرسة الأقصر الصناعية ثم ترك الحكومة وتفرغ كلية للفن.. كان كاتباً يكتب المسرحيات والشعر والزجل ويمثل على المسرح ويلقى مونولوجات يضع كلماتها وألحانها.. وأُمى بدأت ممثلة تعيش فى وسط المسرح منذ كانت فى العاشرة.. والتقت مع أبى عام ١٩١٦ وأنجبانى فى أول يناير عام ١٩١٩.. ولكنهما كانا قد انفصلا لاختلاف نزعاتهما الفنية.. وأخذنى أبى منذ ولدت وتركى لأبيه وجدى الشيخ أحمد رضوان وكان من خريجي الأزهر ومن رجال القضاء الشرعى، وكان متحفظاً إلى حد التزم فى كل ما يفرضه الإسلام، ورغم ذلك فكان متميزاً بتقدير الفن وكان يتردد عليه كأصدقاء كبار المطربين والفنانين على أيامه، كما كان مشتركاً فى القضايا السياسية وكان كثير من قادة الثورة منذ أيام مصطفى كامل إلى أيام سعد زغلول يعدون إليه بالإشراف على شئونهم إذا اضطروا إلى الهجرة خارج مصر.. وفى بيت جدى كانت الأم التى ترعانى هى عمتى السيدة نعمات رضوان وإن كان لم يحرما أُمى منى رغم عدم رضائهم عنها لأنها امرأة متحررة تعمل بالتمثيل على المسرح..

وقد أثر على اختلاف المجتمعين اللذين أعيشهما تأثيراً أساسياً فى تكوين شخصيتى وعقليتى.. مجتمع جدى المحافظ المتزمت فى دينه ومجتمع أبى وأُمى المتحرر المنطلق.. وقد بدأت منذ وعيت وأنا أتساءل من منهما المجتمع الصالح.. مجتمع جدى أم مجتمع أبى وأُمى.. ووجدت نفسى حائراً بين المجتمعين وهو ماعودنى ألا أستسلم للواقع أبداً إلا بعد أن أدرسه وأفكر فيه إلى أن أثور عليه أو أعترف به.. وكنت منذ طفولتى أرفض التقاليد الاجتماعية لأن التقاليد أيامها كانت تظلم أُمى.. ولكن أحدد تصرفاتى الاجتماعية بعد تفكير وعلى مسئوليتى الخاصة.. وقد بدأت أمسك بالقلم وأكتب منذ بدأت أعى وذلك تقليداً لوالدى، وبلغ

التقليد إلى أنى كتبت أول مسرحية لى وأنا فى العاشرة من عمري.. وفى عام ١٩٢٥ أصدرت والدتى مجلة «روز اليوسف» وأصبحت والدتى لا تريد أن أنمو مقلداً لأبى وأكون مجرد أديب ولكنها تريدنى أن أتفرغ للصحافة وللعالَم الصحفى والسياسى حتى أكبر وأتحمل مسئولية مجلة «روز اليوسف».. حتى أنها بعد أن كبرت قليلاً كانت ترفض أن تنشر لى أى عمل أدبى فى روز اليوسف إلى أن أرسلت يوماً قطعة من الشعر المنشور إلى جريدة روز اليوسف دون أن أضع عليها إسمى فنشرت فى الصفحة الأدبية.. وكانت أول ما ينشر لى فى حياتى.. وعندما أبلغت والدتى بأنى كاتب هذا الشعر المنشور غضبت وعاقبتنى بأن خصمت مصروفى الأسبوعى الذى كانت تعطيه لى.. لأنها لا تريدنى أن أكون أديباً بل تريدنى صحفياً..

وهكذا وجدت نفسى أديباً وصحفيًا دون تعمد أديب لأبى وصحفى لأمى.. فن واحد لم أره من أبى أو أمى وهو فن التمثيل.. فرغم أنى كنت أتردد معهما على أجواء المسارح إلا أننى منذ صغرى كنت أشعر بهيبة نحو فن التمثيل كائى أخافه فلم أحاول أن أكون مثلاً بل أكثر من ذلك فإنى إلى اليوم لا أستطيع ولا أحاول أن أقف فى مواجهة جمع من الناس لألقى خطبة أو أشارك فى مناقشة عامة بل أنى أعتذر دائماً عن التحدث فى الإذاعة أو على شاشة التليفزيون..

ولأنى أعيش المجتمع الصحفى بجانب المجتمع الأدبى فقد تعرفت بكل أكابر الأدباء والصحفيين من صغرى.. وبدأت من صغرى أهتم بالدراسات السياسية وكت أشارك اشتراكاً فعالاً فى كل الثورات والمظاهرات السياسية منذ كنت طالبا فى المدارس الثانوية.. وبعد أن التحقت بكلية الحقوق بالجامعة تفرغت تفرغاً تاماً للدراسة ولم أكتف بدراسة القانون بل أنى درست كل الأدب العالمى وكل التاريخ العربى والعالمى وكل المذاهب السياسية ونظم الحكم التى ظهرت.. وهو ما أفادنى كثيراً فى تكوين نفسى ككاتب..

وقد اشتغلت باخاماه بعد تخرجى فى كلية الحقوق ولكن فى الواقع كنت متفرغاً للصحافة، ولأنى ابن صاحبة مجلة «روز اليوسف» فقد تميزت بالحرية الكاملة فى كل ما أكتب لأن والدتى كانت قد منحتى هذه الحرية كما منحتى سلطة كاملة

فى النشر.. وقد وصلت بحريتى إلى حد أنى لم أكن أقيد آرائى بالانتماء إلى أى حزب أو الانتساب إلى أى رئيس ولا حتى الارتباط بصداقة يمكن أن تقيد رأىى.. وأنا إلى اليوم أعيش هذه الحرية..

وقد بدأ تفكيرى الوطنى والسياسى بالتطور السريع إلى رفض كل الواقع السياسى الذى تعيشه مصر، وأصبحت - حتى على خلاف مع أمى - أعتبر مفكراً وكاتباً ثورياً أعتمد على فكر الجيل الجديد الذى أتنمى إليه لا على فكر الجيل الذى سبقنى.. وكنت مساهماً بالرأى الذى أكتبه فى كل الفترات التى تقوم فى مصر بما فيها ثورة ٢٣ يوليو..

وقد استطعت أن أثير قضايا سياسية هامة كان أشهرها قضية الأسلحة الفاسدة.. وهى قضايا أثارت لى متاعب كثيرة فقد قبض علىّ ودخلت السجن ثلاث مرات. ووقفت أمام النيابة للتحقيق معى عشرات المرات، وحاولوا اغتيالى أربع مرات.. وكل رئيس دولة كان يدخلنى السجن أو حتى كان يحاول اغتيالى كان يعتذر لى فيما بعد لأنهم كانوا كلهم يعرفون أنى لست فى خدمة أحد ولا أعبر عن رأى أحد ولكن دائماً كاتب حر فى رأيه..

وبعد أن اطمأنت والدتى على أنى استطعت أن أحقق وجودى كصحفى وكاتب سياسى، منحتنى نفس الحرية فى نشر انتاجى الأدبى.. ومن يومها وأنا أنشر القصص التى أعترز بها اعتزازى بكل تاريخ حياتى.. ومنذ بدأت أعمل فى روز اليوسف وأنا أتمنى أن أنشر مقالاتى وقصصى فى الصحف الأخرى حتى أثبت لنفسى وللناس بأنى لا أنشر فى روز اليوسف مجرد أنها مجلة أمى بل أنى أستطيع أن أنشر فى أى صحيفة...

أما عن إحساسى الخاص فإن أجمل سعادة أعيشها هو أنى استطعت أن أسعد عائلتى.. أسعدت أبى بأن جعلته مقتنعا بى ولأنى ساهمت فى توفير الحياة الكاملة والسعيدة له.. وأسعدت أمى بأن حملت عنها المسئولية واستطعت أن أستمر بمجلة روز اليوسف.. وأسعدت أعز مخلوقة لى وهى زوجتى وأسعدتى فقد عانت معى إلى أن استطعنا أن نقيم هذه الحياة السعيدة.. ثم أسعدت إبنى محمد وإبنى أحمد

وأسعداني بأن نجح كل منهما في العمل الذي اختاره لنفسه وفي المكانة الاجتماعية
التي وفرها لنفسه.. وأجمل ما في حياتي اليوم وأعز من لى هم أحفادي كريم ومحمد
وشريف.. وفقهم الله وشملهم برعايته كما شملني وشمل آباءهم..
وكل هذا ليس تاريخ حياتي فتاريخ الحياة هو دائما موضوع العمر كله بكل
تفاصيله يتطلب كتابا بل عشرات الكتب.. انما مجرد كلمة..

دی لبہ ازنی پر عذرتن ، دہمیں مہ
نفسی .. دی مہمیں اولاد ..
وہمیں پھر
امام عیسیٰ مسیح
۶۹/۶/۱۷

- ١ -

في عام ١٩٥٠ دعيت للاشتراك في مؤتمر الطب النفسي الذي عقد في مدينة بوسطن بالولايات المتحدة ..

ولم أكن في حاجة الى حضور هذا المؤتمر ، فاني أستفيد من قراءة بحوث الأطباء العالميين ، أكثر مما استفيد من مناقشتهم .. ولكنني كنت في حاجة الى الرحلة نفسها .. كنت قد قضيت عامين أعمل خلالهما كل يوم .. كل يوم أغوص في نفوس الناس ، بعقلي وأعصابي ، لأصل الى هذا السر الذي يسيطر على تصرفاتهم .. ورغم اني حريص دائماً على تنظيم مواعيد عملي ، بحيث أترك لنفسي وقتاً كافياً للراحة ، الا اني تعبت ..

تعب عقلي ، وتعبت أعصابي ..

وسافرت الى بوسطن ، بالطائرة ..

وامستغرق المؤتمر الطبي أسبوعين ، وكان أمامي بعد ذلك

خمسة وأربعون يوماً أقضيها اجازة ..

أين أذهب ؟

ان الذين يبحثون عن الراحة في مكان هادئ ، مخطئون ..

الهدوء لا يريح .. بالعكس .. انه أكثر إرهاقاً للأعصاب ..

وللعقل من الضجيج .. فالراحة الحقيقية هي أن ترتاح من نفسك .. أن تجد ما يشغلك عنها .. وكل حياتك .. كل دنياك .. كل ما يحيط بك .. كل ذلك هو في داخل نفسك .. ان عمالك في داخل نفسك .. وأصدقاءك وأعداءك في داخل نفسك .. ومتاعبك ومشاكلك في داخل نفسك .. فاذا لجأت الى مكان هادئ بعيد ، فأنت تبتعد عن دنياك الخارجية ، ولكنك لا تبتعد عن دنياك الداخلية التي تعيش فيها كل متاعب الدنيا الخارجية .. لأن الهدوء يتيح لك فرصة أكبر لمواجهة نفسك .. فاذا بك تجد عقلك مشغولا ، وأنت على ثلاثة آلاف ميل من مكتبك ، بنفس المشاكل التي يشغل بها عقلك وأنت جالس في مكتبك .. ويلم بك الصداع ، وتتوتر أعصابك .. وكأنك لست في اجازة .. وكأنك لا ترتاح !

ولذلك تجد الرجل العنيف في عمله ، عنيفا أيضا في لهوه .. وكلما ازدادت مسؤولياته ومشاكله كلما ازداد عنفا في اللهو .. لأنه في حاجة الى هذا اللهو العنيف حتى ينسى مشاكله ومتاعبه .. ينسى نفسه .. قد يخرج الى صيد الوحوش .. وقد يلعب القمار في تهور يبلغ حتى المجازفة بكل ما يملك .. وقد يهوى مشاهدة مباريات المصارعة والملاكمة ، لأن القسوة الانسانية التي تبدو في هذه المباريات تشغله عن قسوة نفسه عليه ، وعلى أعصابه .. وفي أحسن الفروض قد يلعب الشطرنج .. وأنا أعتبر الشطرنج لعبة عنيفة لأنها تتطلب تركيز عقلك في صراع مع زميلك في اللعب ، يشغلك عن صراخك مع نفسك ..



ثم اذا لم يجد الانسان بعد كل ذلك ، الراحة .. اذا لم
يستطع أن يريح عقله وأعصابه .. لجأ الى الخمر ، أو الى
المخدرات .. والخمر والمخدرات ليست سوى عقاير تفقدك
وعيك بنفسك .. وبغشائك .. وبدياك الخاصة .. فترتاح ..
ترتاح من نفسك .. ثم اذا لم تستطع الخمر أو المخدرات أن
تريحك ، وصلت الى مرحلة الجنون .. وقد تصل الى الجنون
الخطر .. قد تقتل مثلا .. تقتل انسانا بعيدا عن حياتك ، ولا
ذنب له معك .. وكل ما هنالك أن عملية القتل نفسها تشغلك
عن نفسك .. تريحك برهة من دنياك الخاصة .. انها نفس الحالة
التي تدفع أحد أصحاب الملايين الى الخروج في رحلة لصيد
الوحوش .. والفرق .. أن الذى يقتل أسدا — بلا سبب —
يسمى صيادا .. والذى يقتل انسانا — بلا سبب — يسمى
مجنونا !!

ولهذا أيضا ، يتميز العصر الذى نعيش فيه بالموسيقى
العنيفة .. موسيقى الجاز .. وبالرقصات العنيفة .. السامبا ..
والتشاتشا ، والمارنجى .. و .. و .. لأن الموسيقى الهادئة لم
تعد تكفى لتشغل الانسان عن نفسه .. عن المشاكل المعقدة التى
تواجه انسان هذا العصر .. بالعكس ان الموسيقى الهادئة ،
كالمكان الهادىء ، تساعدك على مواجهة نفسك أكثر .. ومواجهة
المشاكل التى تعيش فى داخل نفسك .. فلا تترتاح .. الموسيقى
الهادئة تساعدك على التفكير فى مشكلة .. والموسيقى الصاخبة
تساعدك على الهرب من مشكلة !!

ولكن هذه الموسيقى والرقصات العنيفة ، ليست من طبيعة هذا العصر وحده .. انها موسيقى ورقصات بدائية ، مقتبسة من موسيقى ورقصات القبائل البدائية .. وهذا صحيح .. والسبب .. ان الانسان البدائي ، كانسان هذا العصر ، كان يعيش في مشكلة نفسية في حاجة لأن يهرب منها .. مشكلة الخوف .. الخوف من الطبيعة .. والخوف من الوحوش .. والخوف من غارات القبائل الأخرى .. والخوف من رئيس القبيلة نفسه .. فابتكر هذه الموسيقى العنيفة ، وهو يعتمد أنه يتوسل بها الى الآلهة ، ولكن الواقع أنه كان يهرب بها من نفسه .. من الخوف .. من مشكلته !!

ان الموسيقى العنيفة أشبه بالتطعيم ضد الجنون .. والانسان يطعم نفسه ضد الكوليرا ، بنسبة من ميكروبات الكوليرا نفسها حتى يحصن نفسه ضدها .. وكذلك هذه الموسيقى والرقصات العنيفة ، أشبه بميكروبات الجنون .. تصيبك بجنون مؤقت مخفف .. حتى تحصن نفسك ضد الجنون الكامل .. وأنا شخصيا لا أميل الى الموسيقى الصاخبة ، ولا أرقص هذه الرقصات العنيفة ، ولكنى فى كثير من الحالات المرضية التى مرت على ، كنت أنصح المريض ، بأن يتعلم رقصة المارنجى !!

و ..

ولعلى استطردت طويلا فى شرح نظرية الراحة .. آسف .. وعذرى أنى طيبب نفسى ، والأطباء عادة حريصون على تحليل كل خلجة تخطر على تفكيرهم .. ربما لأنهم يتخيلون بعملهم ،

وربما لأنهم هم أنفسهم في حاجة الى الاغراق في التحليل لعلهم
يصلون من ورائه الى شيء جديد ..
المهم ..

كان من المستحيل على وأنا أبحث عن مكان أقضى فيه
اجازتي ، أن أفكر في مكان هاديء ، وأنا أعرف متاعب الهدوء ..
وأعرف هذه السلسلة الطويلة من التحليلات التي تبدأ بالهدوء
وتنتهي بالجنون ..

وبدأت أبحث عن مكان صاحب ..
مكان مثير .. يشغلني عن نفسي ، وعن مشاكلي .. فأرتاح !!
وكانت صدفة .. مجرد صدفة .. عند ما مررت أمام أحد
مكاتب السياحة ، ولمحت اعلانا كبيرا ، تتوسطه خريطة لافريقيا ،
كتب فوقها بالخط الأسود العريض : « افريقيا السوداء » !!
وثار خيالي ..

ثار وراء القصص الكثيرة التي قرأتها في شبابي عن أواسط
افريقيا .. أو عن افريقيا السوداء .. ثار خيالي وراء هذه الصور
الغامضة المثيرة التي لا زلت أحتفظ بها لافريقيا .. صور
الغابات .. والوحوش .. وقبائل نيام .. وطرزان !
والخيال لا يحده شيء الا ما تحتفظ به في رأسك من
معلومات .. فاذا لم يكن في رأسك معلومات عن موضوع ما ،
نساوى خيالك حول هذا الموضوع ، بخيال الأطفال ..
وقد أحسست بنشوة الطفل ، وأنا أتصور نفسي في أواسط
افريقيا .. أتصور نفسي طرزان !

وبسرعة .. وبلا تردد .. قررت أن أقضى اجازتى فى أواسط
أفريقيا !

وبعد خمسة أيام كنت أسير فى شوارع « دكار » عاصمة
مينا السنغال — أو عاصمة السودان الفرنسى كما كان يسمى
قبل الاستقلال — وعلى رأسى قبعة كبيرة بيضاء من الفلين ..
تفس القبعة التى كان يضعها على رأسه الرحالة « استافلى »
الذى اكتشف مجاهل افريقيا !!

وصدمتنى دكار عند ما رأيتها لأول مرة من بعيد .. انها
مدينة كبيرة ، ترتفع فيها عمارات شاهقة حديثة .. ويسير فيها
ترام وأوتوبيس وتعرض فى نوافذ الحوانيت آخر أزياء باريس ..
ليس فيها أثر لطرزان .. ولا لشيئا .. ورغم ذلك ، فما كنت
أسير فى شوارعها خطوات حتى أحسست بنفسى فى افريقيا ..
احساس مثير غريب يدفعنى الى أن أبخلق فى الوجوه ، كأنها
ليست وجوها عادية يمكن أن أقابلها فى أى بلد آخر .. ليست
وجوه الوطنيين السود وحدهم ، بل أيضا وجوه الأجانب ..
الأجانب البيض .. كل وجه يثير خيالى .. فأتخيله من عالم
آخر .. أتخيل الوجه الأبيض كأنه فى حقيقته وجه أسود مدهون
بالبياض ، وأتخيل الوجه الأسود كأنه وجه أبيض مدهون
بالسواد ..

ورائحة زاعقة حادة ، تملأ أنفى .. رائحة افريقيا .. ان هذه
الرائحة تلاحقنى فى كل مكان .. تلاحقنى حتى وأنا فى دكان
الحلاق الفرنسى ، يحلق لى ذقنى ، وفتاة فرنسية شقراء تقص لى

أظافرى .. وزجاجات العطر الفرنسي مرصوفة أمامى .. ان كل ما فى فرنسا من عطور لا يستطيع أن يتغلب على هذه الرائحة الزائقة .. رائحة افريقيا .. انها رائحة عجيبة تربطك بالأرض التى تسير فوقها .. تشدك اليها .. كأنها تناديك الى باطنها ..

وشعور غريب بالرهبة يملأ صدرى كالهواء البارد .. انها رهبة أشبه بالخوف .. خوف لذيذ .. فى كل خطوة أنتظر شيئاً مثيراً .. كأنى أنتظر أن يخرج على أسد .. أو كأنى أنتظر أن يقفز على كنفى قرد .. رغم أنى أسير فى شوارع مرصوفة ، وضجيج عربات الترام والأوتوبيس يملأ أذنى ..

ولم يزلنى هذا الشعور — شعور الرهبة اللذيذ — طوال الأيام الأربعة التى قضيتها فى دكار .. ولكنى أحسست بهذه الرهبة تشدنى الى داخل افريقيا .. انك عند ما تبطلق فى الماء مدة طويلة تحس أنك تهم بالقاء نفسك فيه .. وهذا ما أحسست به .. أحسست أنى أريد أن ألقى نفسى داخل افريقيا .. أن ابتعد عن الميناء .. عن البحر واكتشف ما وراءه !

وركبت القطار الى مدينة باماكو .. فى قلب افريقيا .. وعيناي طول الطريق تتسلقان الأشجار التى يمر وسطها القطار .. وأفرح كالأطفال عند ما أرى عن بعد قطيعاً من الغزلان .. أو الفيلة .. أو الزراف .. أو مجموعة من القردة .. وأشهى عند ما تلتقى عيناي بالأجساد الافريقية الفارحة تهف فى كبرياء كأعواد الأبنوس .. وتكشف الشفاه الغامقة عن ابتسامات بيضاء .. فى لون الشمس .. فى لون اللبن الطازج .. فأبتسم لها .. أحس

أنى أغرق فى هذه الابدسامات . أحس كأنى أريد أن أقدم نفسى
لتأكلنى هذه الأسنان البيضاء ..

ونسيت ..

نسيت القاهرة ..

ونسيت عيادتى ..

نسيت ألى طبيب ..

نسيت اسمى ..

نسيت نفسى ..

الى أعيش بكلى فى نشوتى المثيرة .. فى هذه الرهبة
اللذيذة .. وفى هذا الخوف الساحر
ووصلت باماكو تعباً ..

تعباً من نشوتى ..

وذهبت الى الفندق الوحيد فى المدينة .. فندق الجرائد
أوتيل .. ونمت مباشرة ..

واستيقظت فجأة على صوت طرقات ملحة على باب
غرفتى ..

لم أكن أدري كم نمت .. ولكنى لمحت ضوء الشمس يتسلل
من خلال النوافذ الخشبية .. ونظرت فى ساعتى .. السادسة
والنصف .. والطرقات لا تزال تلح على بابى ..

وقمت وفتحت الباب

وما كدت أفتحه حتى انطلق فى وجهى رجل فاتح ذراعيه ،
وهو يصيح بلغة عربية ضخمتها اللهجة اللبنانية :

— أهلا .. أهلين .. مصرى هنا .. فى باماكو .. يا أهلا ..
يا أهلا ..
ومددت يدي أضافحه وأنا لا زلت فى زهول المفاجأة
وأتمتم :
— أهلا بك ..
ولكنه رفض يدي الممدودة ، وفتح ذراعيه على آخرهما ،
وهو يصيح بلهجته المضخمة :
— اسمح لى أقبلك يا أخى .. هذه فرصة نادرة .. مصرى
هنا فى باماكو .. يا أهلا يا أهلا ..
ثم احتوانى بين ذراعيه ، وضمنى بقوة ، وقبلنى فوق
وجنتى وهو يضرب على ظهري ..
ثم دخل الى الغرفة ، وأغلق الباب وراءه .. وهو يقدم لى
نفسه ..
اسمه سامى الداعوق .. مهاجر لبنانى يشتغل بالتجارة ..
وأديب ..
ولم يكف عن الكلام ..
تكلم عن القاهرة .. وعن بيروت .. وعن باماكو .. وتكلم
فى السياسة .. وفى الأدب .. وألقى قصيدة من نظمه ..
وأنا أنظر اليه .. أحاول أن أقرأ وجهه .. انه فى الثلاثين أو
الثانية والثلاثين .. طويل .. قوى البنيان .. أسود الشعر ..
ملون العينين .. بشرته تميل الى اللون الأسمر .. ولكنى
لا أستطيع أن أقرأ شيئا فى وجهه .. ربما لأن كلامه الكثير يهز

صورته بعنف .. ورغم ذلك — رغم كلامه الكثير — فهو ليس
ثقیل الدم .. بالعكس .. لقد أحسست بعد دقائق أنى أعرفه
من زمان طويل .. وبدأت أتصرف معه وأمامه كأنه صديقى ..

وسألنى خلال كلامه الكثير :

— حضرتك دكتور باطنى ؟

قلت وأنا أبتم .

— لا ..

قال :

— جراح !!

قلت :

— لا ..

قال :

— دكتور أسنان أذن ؟

قلت :

— لا ..

قال وقد انطلقت كل لهجته اللبناية الحادة :

— يخرّب بيتك .. شو بتكون .. دكتور حيوانات !

قلت وأنا أضج بالضحك :

— لا .. دكتور نفسانى !

وسكت سامى مرة واحدة .. سكت عن الكلام .. وعن
الضحك .. ومر بأصابع مرتعشة فوق عامود السرير الذى
أجلس عليه .. ثم قبض عليه وضغط بقوة .. كأنه يقاوم شيئاً فى

نفسه .. ثم قال فى صوت خافت كأنه تغلب أخيرا على نفسه :
— تشرقنا ..

ولم يلحظ سامى أنى لمحت ارتعاشة أصابعه .. وأنا نفسى لم
أعلق أى أهمية على هذه الرعشة ، ولا على سكوته المفاجيء ،
وخفوت صوته .. فما لبث سامى أن عاد الى طبيعته والى كلامه
الكثير ..

واتظرنى الى أن اغتسلت وارتديت ثيابى ، ووضعت فوق
رأسى هذه القبعة الكبيرة الفلين التى كان يرتديها الرحالة
ستالى .. ثم نزلنا معا الى قاعة الطعام فى الفندق ، وتناول معى
طعام الافطار .. ثم خرج يطوف بى فى أنحاء المدينة ..

وهو لا يكف عن الكلام .. لا يترك شيئا يمر به دون أن
يعلق عليه ، فى سخريه مرة .. حيا وهو يسير بجانبى صديقا له ،
ثم التفت الى بمجرد أن ابتعد عنه الصديق ، وقال :

— انه مهاجر لبنانى أيضا .. أتدرى كيف جمع ثروته ..
لقد جاء أبوه الى هنا منذ خمسين سنة ، مفلسا ، وأخذ يبيع
التراب للزواج المسلمين على أنه تراب مكة .. وجمع بذلك
ثروة وبدأ يتاجر .. وأصبح مليونيرا !!
وابتسمت ..

وأنا أفتشغل عن كلام سامى بالتلفت الى الوجوه التى أمر
بها .. وجوه سمراء حلوة ، تنتشر بينها وجوه بيضاء ، كالقنوب
فى ثوب من القطيفة السوداء .. وأزياء النساء تشغلنى .. عمامة
من الحرير الملون الزاهى فوق الرأس .. وعباءة فضفاضة من

قمائش شفاف مطرز فوق ثوب واسع فاقع اللون .. أحمر
 فاقع .. أصفر فاقع .. أخضر فاقع .. أى لون فاقع .. وبائعات
 المانجو يسرن كالتقطيع ، كل منهن وراء الأخرى وعلى رأسها
 حمل ثقيل من المانجو .. ان بائعات المانجو هناك كبائعات الفجل
 عندنا .. وأصواتهن تنطلق رفيعة ، لها رنين كرلين جلاجل معلقة
 في أقدام غزال شارد ..

وباماكو مدينة صغيرة ، تنقسم الى قسمين .. قسم للأجانب ،
 وقسم للأهالي الوطنيين .. فى القسم الأجنبى عمارات ، وفيلات ،
 وشوارع مرصوفة .. وفى القسم الوطنى يسوت من طين ،
 وشوارع متربة .. كآى بلد مستعمر آخر ا
 واتهمنا من الطواف بالقسم الأجنبى فى مدة أقل من ساعة ..
 وقلت لسامى :

— لنذهب الى الحى الوطنى ا
 ورفع سامى رأسه الى بغته ، وقال بحدة :
 — لا .. ليس الآن ا

ونظرت اليه بتعجب .. ولكنه عاد وخفف حدته بسرعة ،
 واستطرد قائلا كأنه يعتذر لى :
 — لنر النهر أولا ..

وسرنا فى اتجاه النهر .. نهر النيجر .. وفى الطريق توقفت
 قليلا ، وأخرجت آلتى الفوتغرافية ، وقلت وأنا أشير الى فريق
 من النساء الوطنيات متجمعات حول بائع :
 — هل أستطيع أن التقط هذه الصورة ؟

ونظر سامى الى حيث أشرت .. الى النساء الوطنيات .. ثم عاد بعينه الى سريما .. كأنه غضب منى ، وقال وقد احتدت لهجته مرة أخرى :

— لا .. لا .. انهن يغضبن من التصوير .. مستجد عند النهر مناظر جميلة !
وتعجبت أكثر ..

ولم يحاول سامى أن يفسر حديثه هذه المرة .. ولكنه أرخى عينيه وسار في خطوات سريعة ونظراته فوق بوز حدائه .. وقد تنبعت الى أن سامى يسير دائما وهو ينظر الى بوز حدائه .. يتكلم .. يتكلم كثيرا .. دون أن يرفع رأسه ، أو يتلفت حوله .. كأنه يخاطب نفسه .. كأنه يخشى أن يرفع رأسه أن يرى شيئا لا يريد أن يراه ..

وقد بدأت هذه الملاحظات التى أجمعها عن سامى تضايقنى .. انها تذكرنى بألى طيب قسائى .. تذكرنى بعيادتى .. وتدفعنى الى العمل .. وأنا أريد أن أنسى .. لا أريد أن أعمل .. أنا فى إجازة !!

وسرت بجوابه ، وأنا أحاول أن أركز كل ذهنى فيما أشاهده حولى ، حتى لا أعود فأجمع عنه مزيدا من الملاحظات .
ووصلنا الى النهر ..

نهر النيجر ..
انه نهر قد لا يزيد فى اتساعه عن نهر النيل فى بعض أجزائه .. ورغم ذلك فقد أحسست أن فيه شيئا ليس فى نهر

النيل .. فيه غموض .. وفيه قسوة .. وفيه توحش .. وصوت
تدفق مياهه ، كأنه زئير مكتوم .. ومجرد اسمه .. « النيجر » ..
يشير في هذا الوهم الكبير عن أواسط أفريقيا .. ولا يخفف من
هذا الوهم لنشأت وبواخر المستعمرين المربوطة على شاطئه ..
خيل الى أن النهر وهو يزحف تحت اللنشات والبواخر يحاول
أن يشدها الى باطنه .. يحاول أن يتلعها .. و .. وفي جانب من
النهر بعض البنات البيض .. بنات الفرنسيين والمهاجرين ..
يسبحن ، وهن مرتديات مايوهات بيكيني .. ورغم ذلك
لا يستطعن أن يخفن من قسوة النهر ، أو يروضن توحشه ..
انى أراهن كائى أرى فتيات السيرك يلعبن فى فم الأسد .. وفى
جانب آخر .. بعيد .. بعيد جدا عن منطقة المستعمرين ، تجلس
على الشاطئ بعض النساء الوطنيات يغسلن ثيابهن ، وصدورهن
العارية تتدلى أمامهن كقوالب العنبر ..
واتجهت الى النساء الوطنيات لألتقط لهن صورة
فوتغرافية ..

ومرة ثانية احتقن وجه سامى .. وارتعشت يداه .. وخلجة
فوق شفته العليا ترتعش بشدة ..

ثم صرخ كأنه لم يعد يستطيع أن يطيق :

— لماذا تريد تصويرهن .. انهن زنوج .. عبيد ..
متوحشات .. خير لك أن تقتلن .. يجب أن يقتلن .. كل
العبيد يستحقون القتل .. سأقتلهم .. نعم .. سأقتلهم !
وكان يصرخ هذا الصراخ ، وهو لا ينظر الى .. كان ينظر

الى لا شىء يعينين تأتئين .. والخلجة فوق شفته العليا ترتعش
بعنف ، حتى خيل الى أنها ستخلع من وجهه ..
ونظرت اليه فى دهشة ..
فوجئت بهذه الحالة ..

ولكنى تنبته الى أنى يجب ألا أشعره بحالته .. ان أول
مبادئ علم النفس ألا تشعر المريض بأنه مريض ، بل يجب أن
تنتظر الى أن يعترف لك بمرضه ..

وتظاهرت بعدم الاهتمام .. ثم قلت بلا مبالاة :

— أظن أن منظر الفتيات البيض أجمل ..

ثم اتجهت الى الناحية الأخرى .. ناحية بنات المستعمرين
والمهاجرين .. وتركنت سامى ورائى مركونا على جذع شجرة ،
وصدره يضيح بأفئاسه ..

وأخذت ألتقط بعض الصور ، وعقلى مشغول بحالة
سامى .. لقد خيل الى عند ما رفض أن يصحبني لزيارة الحى
الوطنى ، ثم عند ما رفض أن يسمح لى بتصوير البنات
الوطنيات ، انه يعطف على الوطنيين السود .. ويغار عليهم ..
ولكنى الآن أسمعهم يطالب بإبادتهم .. حالة عجيبة .. ورغم
ذلك فلم أكن مستعدا لبحث هذه الحالة .. انى فى اجازة
وتشاغلت بالتصوير مدة تكفى حتى يستريح سامى وتهدأ
أفئاسه .. ثم عدت اليه وقلت وأنا ابتسم له ، ابتسامة كبيرة :

— والآن .. الى أين ؟

قال فى اختصار :

— نعود ..

ولم أعترض ..

عدنا في الطريق الطويل الذي جئنا منه .. وسامى صامت

يسير وهو ينظر الى بوز حدائه ..

ويبدو أن السير مكنه من السيطرة على نفسه ، فقد رفع

رأسه ، وقال كأنه يعتذر لى :

— ان هؤلاء العبيد يتلفون أعصابى !

قلت وأنا ابتسم :

— لعله هذا الجو الحار الرطب ..

قال :

— لا .. انهم هؤلاء العبيد !

وتعمدت ألا استمر في مناقشته .. فأشرت الى أحد البنايات

الحكومية التى مررنا بها وسألته عنها .. وأجابنى .. وعاد الى

طلاقة لسانه .. الى كلامه الكثير ..

وودعنى على باب الفندق ..

وواعدنى على أن يمر على فى المساء .



وفى المساء صحبنى سامى الى مقهى فى الهواء الطلق على

شاطئ النيجر .. تمزف فيه فرقة موسيقية كل أفرادها من

البيض .. وتتوسطه حلبة رقص .. والمقاعد تنتشر تحت

الأشجار .. مقاعد كبيرة مريحة كأنها أعدت للنوم لا للجلوس ..

وصاحبة المقهى سيدة فرنسية سمينة ، مصبوغة الشعر ، تجلس الى « الكيس » وتنظر الى الزبائن كأنها تقتش جيوبهم بمينيها .. والمقهى اسمه « فاني » ..

وجلس سامى على المقعد المريح ، وقال وهو يتهد :
— أتعرفى .. أن هذا المقهى محرم دخوله على الزوج !
قالها كأنه يعلن أنه فى منطقة الأمان !

ثم بدأ يتكلم فى استرخاء .. وأنا مسترخ بجانبه ..
ونمت الليل الافرقى تسلل من تحت ثيابنا وترطب أجسادنا الساخنة .. والقمر الافرقى يلقي نوره على حوافى أوراق الشجر ، فتبدو كأنها أوراق من الذهب .. الى أحسن هنا أن القمر .. قمر طبيعي .. كالغابات .. كالجبال .. كنهر النيجر .. كوجوه البنات الافريقيات .. وكنت أحسن بالقمر فى أمريكا ، وهو يطل على ناطحات السحاب ، كأنه قمر صناعى ..
وأخرج سامى شيئاً من جيبه ، أشبه ببذرة المانجو .. لونها أحمر مخضب بالأصفر .. وقطع منها قطعة صغيرة بأسنانه ، وضعها تحت لسانه ، وأعاد البذرة الى جيبه ..

وقلت له فى تعجب :

— ما هذا ؟

قال فى بساطة :

— كولا ..

قلت :

— ماهى الكولا ..

قال :

— ألا تعرف الكوكاكولا .. هذه هي الكولا .. وهي
تنمو هنا بكثرة ..

وأخرج الحبة من جيبه ، وقال وهو يناولها لى :

— جرب !!

قلت وأنا أقلب الحبة بين أصابعى :

— ما مفعولها ..

قال :

— منشطة .. الزنوج الأغبياء يمتقدون أنها منشطة
للنواحي الجنسية .. لأنهم حيوانات .. ولكن الواقع أنها
منشطة للذهن .. فقط !

وقطعت من الحبة قطعة صغيرة ..

ان طعمها مر ..

مرارة تشق اللسان ..

وبصقتها نوا من بين شفتى .. وأنا أنظر الى سامى كالى
أسأله كيف يتحمل مرارتها .. ثم قلت :

— هل يدمنها الزنوج ؟

قال :

— نعم ..

ثم بسرعة انطلق كأنه أخطأ :

— كل الناس يأكلونها هنا !

وأخذنا نتحدث عن الكولا .. وأنا أقارن بينها وبين القات

الذى يدمنه أهل اليمن .. وفجأة .. رأيت سامى يعتدل في
جلسته .. وتفتح عيناه في ذعر .. وهو ينظر بهما ناحية الباب ..
وهذه الخلجة فوق شفته العليا تبدأ في الارتعاش ..
وتبتعت عينا سامى المذعورتان .

فتاة زنجية دخلت من الباب ..

لعلها في التاسعة عشرة .. قوامها فاره .. ممتلئ .. ترتدى
الزى الوطنى وابتسامتها حلوة تخلع القلب .. وعيناها تضيئان
وجهها بشعاع قوى من النور ..

واتجهت الفتاة اليها .. وثاقلت خطواتها وهي تمر من
أماننا .. وألقت الى سامى بابتسامة كبيرة .. ونظرة تضج
بالنور .. ثم اتسعت خطواتها واستمرت في سيرها .. الى أن
خرجت من الباب الآخر للمقهى ..

والخلجة فوق شفة سامى العليا ، تزداد ارتعاشا .. تكاد
تنفصل عن وجهه .. وعيناه تبرقان ببريق مذعور .. وأناقسه
بدأت تنهدج .. وقطرات من العرق بدأت تنبثق فوق جبينه ..
وهو متشبث في مقعده بكلتا يديه .. كأنه خائف .. كأنه
يقاوم ..

ثم قال في صوت محرج دون أن ينظر الى :

— عن اذنك ..

وقام قبل أن أجيبه ..
وتبع الفتاة ..

واتظرت أن يعود سامي ..
اتظرت حتى منتصف الليل ..
ولم يعد ..

- ٢ -

.. تركت مقهى « فاني » وعدت الى الفندق ، وكل عقلى مشغول بدراسة شخصية سامى .. أصبحت شخصيته أمامى ، كمشكلة حساية عويصة .. مثيرة .. وبدأت مهنتى كطبيب نفسانى ، تغلبنى .. انها ليست مهنة فحسب ، انها هواية أيضا .. ووجدت نفسى أبتعد عن اهتمامى بأواسط أفريقيا ، وأركز كل ذهنى فى حل المشكلة التى صادفتنى .. بل أحسست أنى لو اكتشفت سر سامى ، فكأنى اكتشفت أكبر أسرار افريقيا .. وفى الفندق فتحت نوتة مذكراتى ، وكتبت فيها : « زارنى اليوم مهاجر لبنانى اسمه سامى الداعوق .. مرتبك الشخصية ، الى حد يدفعنى الى دراسته » ا

ثم طويت نوتة المذكرات وبدأت أنام ، والملاحظات التى التقطتها عن سامى تمر أمامى كشريط سينمائى .. كلامه الكثير .. وطريقة مشيته وهو لا يرفع عينيه عن بور حذائه .. ثم تضارب عواطفه نحو الزوج الوطنيين .. أحيانا يبدو كأنه يغار عليهم من الأجانب .. وأحيانا يطالب بآبادتهم ويسميهم عبيدا متوحشين .. ثم هذه الرعشة السريعة العنيفة التى ترتعش بها خلجة وجهه فوق شفته العليا ، والتى أصابته وأنا أحاول أن



ألتقط صورة للنساء الوطنيات .. ثم أصابته مرة ثانية عند ما
دخلت المقهى هذه الفتاة الزنجية ، ونظرت اليه ، فقام وراءها
ولم يعد .. و ..

ونمت .. والشريط السينمائي لا يزال يدور في عقلى ..
وفي الصباح الباكر .. فى الساعة السادسة والنصف ..
فتحت عيني على طرقات عنيفة على بابى ..
ودخل سامى ، يصيح كماداته بلهجة اللبنانية ، وكل حرف
علا شذقيه :

— ألا زلت ناعماً يا دكتور .. ان باماكو تبدأ الحياة فى
الساعة الخامسة ..

والطلق فى الكلام ..
ولكنه لم يحاول أن يعتذر عما حدث منه ليلة أمس .. لم
يعتذر عن تركى فى المقهى دون أن يعود الى .. بل لم يحاول
اطلاقاً أن يتحدث عن ليلة أمس ..

ودقت النظر فى وجهه .. ان وجهه باهت .. وعينيه
مكدودتان ، تعبتان .. رغم الابتسامة الكبيرة التى يحاول أن
يحتفظ بها بين سنتيه .

ثم ..
فى رقبته خدش رفيع .. يبدو أنه خدش من ظفر حاد ..
وتوقفت عيناي على هذا الخدش .. وبحركة لا ارادية ،
رفع سامى كفه ، ومسح به على الخدش .. كأنه يحاول أن يخفيه

عنى .. أو كأن نظرتى قد لسعته .. ولكنه لم يقل شيئاً عن هذا
الحديث .. استمر فى كلامه الكثير المبعثر ، ثم قال :
— آسف يا دكتور .. لن أستطيع أن أرافقك اليوم
عندى عمل كثير فى المحل .. ولكنك مدعو عندنا على الغداء ..
أخى سليم يريد أن يراك .. يريد أن يشم فيك رائحة مصر .
وأنا أكره الدعوات .. وخصوصاً الدعوة الى الغداء .. ولا
شئ يفسد الرحلات الا قبول الدعوات .. ومنذ خرجت من
مصر ، وأنا أرفض كل دعوة توجه الى .. سواء كانت دعوة من
السفير ، أو من صديق عابر .. ورغم ذلك فالى لم أستطع أن
أرفض دعوة سامى .. كنت أريد أن أعرفه أكثر .. كنت أريد
أن اكتشفه لأحس أنى اكتشفت شيئاً فى افريقيا .. وكنت
ملهوفاً على أى خطوة تقربنى اليه ..

وتركت سامى يلح على قليلا ، ثم قبلت الدعوة .. وافقت
معه على أن تتقابل الساعة الواحدة بعد الظهر فى بهو الفندق .

وقال سامى وهو واقف عند باب الغرفة :

— أين ستذهب الى أن تتقابل ؟

قلت بلا مبالاة :

— سأجول فى المدينة ..

قال فى تردد :

— هل ستذهب الى ...

وقطع كلامه فجأة ، وقال وبين شفثيه ابتسامة مفتعلة :

— أخشى عليك أن تتوه ..

قلت في بساطة :

— لا تخف ..

وخرج وأنا أنظر وراءه ..

ماذا كان يريد أن يسألني .. هذا السؤال الذي لم يتمه ؟!

هل كان يريد أن يسألني ، اذا كنت سأذهب الى الحى

الوطنى ..

ربما ..

لقد رفض أمس أن يصحبني لزيارة هذا الحى .. رفض

بحدة .. ولعله لا يريدنى أن أذهب اليه وحدى ..

لماذا ؟

واتسعت دائرة الغموض أمامى .. ولكنى تعمدت أن أمنع

نفسى من التفكير وراء هذا الغموض .. منعت نفسى من محاولة

استنتاج أى شىء .. ان من مصالح الطبيب النفسى دائماً ألا

يستنتج شيئاً الا من خلال ما يدلى به مريضه ، حتى لا يؤثر

استنتاجه الشخصى فى تحليل أقوال المريض ..

وكتبت يومها فى مذكراتى : « رأيت خدشا حديثا فى رقبة

سامى .. ماذا حدث ليلة أمس ، بينه وبين الزنجية الصغيرة ؟ »

ثم ارتديت ثيابى .. القميص والبنطلون ..

ووضعت على رأسى هذه القبعة البيضاء الكبيرة المصنوعة

من الفلين التى كان يرتديها الرحالة استأنلى عند ما اكتشف

افريقيا .. ونزلت الى بهو الفندق حيث تناولت افطاري .. ثم

خرجت أطوف مرة ثانية بشوارع مدينة بامako ..

ولم أقرب من الحى الوطنى ..

لقد فكرت فعلا فى أن أتجول فى الحى الوطنى .. ولكنى لم أفعل .. ربما لأن اهتمامى بتحليل شخصية سامى ، جعل للحى الوطنى رهبة مثيرة تدفعنى الى أن أتردد فى الذهاب اليه .. وربما لأنى كنت أريد أن أكتشف الحى الوطنى من خلال اكتشافى لسامى .. كنت معتقدا أن التجول فى نفسية سامى ، هو بمثابة التجول فى أعماق أدغال افريقيا ..

وقادنى الشوارع الطويل الذى يشق الحى الأجنبى فى بامako ، الى كوبرى طويل مقام فوق نهر النيجر .. كوبرى أطول بكثير من كوبرى قصر النيل .. وسرت فوق الكبرى ، ونهر النيجر يزار زئيرا مكتوما تحت أقدامى .. ومياهه الثقيلة السماء ترتطم بشواطئه المتوحشة ، فتثير فى الرهبة .. والخوف .. والتردد .. أحس كأن كل خطوة تقربنى من مفاجأة مثيرة .. وقطرات العرق بدأت تنزف من جبينى .. والجو الحار الرطب يكتم أنفاسى .. وقميصى يلتصق بلحمى ، ويبدو كأنه قميص مغسول ، منشور فوق أكتافى .. وأنا سعيد .. سعيد بإحساسى بأننى فى أواسط افريقيا !!

ووصلت الى نهاية الكوبرى تعباً .. ركبتاى بدأتا تنهاران من تحتى .. وصورة الرحالة ستانلى تهتز أمام عيني .. لو كنت أنا الرحالة ستانلى ، لما اكتشفت أفريقيا حتى اليوم !! وعلى اليسار .. يسار الكوبرى .. مساحة كبيرة من

الشاطيء مغطاة بصخور سوداء ملساء .. صلدة .. متجهة ..
وتلتف في نهايتها حول مساحة من الرمال البيضاء الناعمة ،
غرست فيها مجموعة من الشاسى الملونة ، تبدو على مدى البصر
كأنها بالونات أطفال ..

وتذكرت ان سامى قال لى أن المستعمرين البيض أقاموا
على شاطيء النيجر ، بلاجا .. مخصصا لهم .. أجمل من بلاج
ميامى ، الذى قرأ عنه فى المجلات المصرية ..
لابد أن هذا الذى أراه ، هو بلاج البيض ..
واتجهت اليه ..

كنت من فرط تعبى أريد أن أعود .. ولكن هذه القوة
الدافقة التى تشدنى لأستطلع كل شىء .. لأرى كل شىء فى
افريقيا .. شدت ركبتى المنهارتين .. وأخذت أقفز فوق الصخور
السوداء بصعوبة .. وقدمى تكاد تنزلق فى كل خطوة ..
وقبل أن أصل الى مجموعة الشاسى الملونة ..
وفجأة ..

قفزت من وراء الصخور فتاتان وطنيتان ، كل منهما ملتفة
فوق جسدها العارى بقطعة من القماش المبلول .. وأحد
لهديها يبرز منطلقا شامخا من فوق حافة قطعة القماش .. كأنه
يرفض الأسر .. يرفض أن يختبئ عن النور . والفتاتان
تجريان فى مرح .. أحدهما تشد الأخرى من يدها ..
وتضحكان .. ضحكات رفيعة لها رنين ، كضحكات المصافير ..

ووقت أبعهما بعينى ، وأبتسم فى مرح .. كأنى أرى الطبيعة
تلهو وتضحك ..

ومرتا من أمامى ..

ثم عادتا الى .. عادت الفتاة التى فى المقدمة ، وهى تشد
الأخرى وراءها .. وضحكاتهما تسقط فوق الصخور فيزداد
رنينها ..

ووقت الفتاة الأولى أمامى ، تنظر الى فى جراحة مرحة ،
والنور ينطلق من يياض عينيها فيضىء وجهها كله .. والفتاة
الثانية مختبئة وراء ظهرها ، تحاول أن تكتم ضحكاتهما ..

ورفعت عينى عن نهد الفتاة المنطلق فى وجهى .. كنت حديثا
فى افريقيا .. لم أكن قد تعودت بعد على منظر النهود العارية !!
وركزت عينى على وجهها ..

وشهقت ..

انها نفس الفتاة التى دخلت مقهى « فانى » ليلة أمس ..
وقام وراءها سامى .. ولم يعد !!

ويبدو أنها لم تعرفنى .. يبدو أنها لم تلمحنى أمس وأنا
جالس مع سامى .. انها تنظر الى كأنها لم ترنى من قبل ..
وتكلمت الفتاة فى لغة فرنسية غريبة ، تخرج من بين شفطها
كأن هناك انسانا آخر يجلس فى حلقها ويتكلم .. انسان أبيض
.. وقالت وهى تكتم ضحكتها ، وتحاول أن تشد صديقتها من
خلف ظهرها :

— هل تشتري أختى ؟ !!

وفوجئت بالسؤال ..

لابد أنها لا تقصد ما تقول .. انها مجرد مداعبة .. فكنته ..
ولكن النكتة لها دائما أساس من الحالة الاجتماعية .. ولذلك
تختلف النكتة في كل مجتمع عن الآخر .. وهذه المداعبة التي
تطلقها الفتاة ، تعبر عن جذور قديمة في المجتمع الافرقى ..
وبقيت برهة أنظر في عينيها ، أحاول أن أفهم سؤالها ..
وعادت تقول :

— انها رخيصة .. أربعة فرنكات فقط !
وابتسمت ، وقلت لها .. أبادلها المداعبة :
— انى مستعد أن أشتريك أنت ..
وضحكت ضحكة كبيرة .. ورئين ضحكتها يسقط فوق
الصخور فيتردد له صدى كمرح الملائكة ..
وقالت :

— لا .. أنا غالية !!

قلت :

— لماذا .. لماذا أنت غالية ؟

قالت :

— لأنى كبيرة .. وجميلة .. انظر ..
ورفعت الى وجه صديقتها .. أو لعلها أختها فعلا .. رفعتة
بالقوة وهى تضحك ، والأخرى تقاومها وتضحك أيضا .. ثم
قالت :

— انظر جيدا .. أأست أجمل منها .. بكثير .. أليس كذلك ؟!

وأأست بارتباك يصهر وجهى .. فأست متعودا على مغازلة البنات .. وعمرى لم يعد يلىق بهذا الموقف .. عمر الثانية والخمسين ..

قلت وأنا أبتلع ارتباكى :

— انى مستعد أن أأفع أى ثمن لأشترك .

وعادت تضحك ضحكها الكيرة ، وقالت :

— لا أأظن أن كل ما معك ، يكفينى ..

ثم شأدت أأختها ، وهمت أن تجرى بها من أمامى .. فصأت :

— لحظة من فضلك ..

والتفتت الى فى تعجب .. وأبتسامتها تمرأ فوق أسنانها البىض .. وقالت فى اختصار :

— ماذا تريد ؟

قلت ، وأنا أنظر بكل عىنى فى وجهها :

— هل رأيت سامى اليوم ؟!

وفجأة ..

أأختفت ابتسامتها ..

أأختفت أسنانها البىض ..

وتجهم وجهها ..

وتهدج نهأها العارى ، كأنه يهم بالبكاء ..

ونظرت الى طويلا .. في نظرتها سخط تصبه على .. وكراهية
تحاول أن تخفنى بها .

ثم تركت يد أختها .. ودون أن تتكلم .. جرت من أمامي ..
وفهدا يجرى أمامها .. وأختها تجرى وراءها .

ووقفت أتبعهما ، وأنا أحاول أن أكتشف شيئا جديدا ،
من خلال هذا التجهم الذي أصابها بمجرد سماعها لاسم سامي ..
لقد كان سؤالى مقصودا .. كنت أقصد مفاجأتها به لأرى
انعكاس المفاجأة عليها .. ولاكتشف من هذا الانعكاس حقيقة
نوع العلاقة التي تربطهما .. علاقة بسيطة عابرة .. مجرد علاقة
رجل بامرأة .اختلف لونهما .. أم علاقة مركبة .. علاقة أعمق من
ذلك .. وأكثر جدية ..

لا شك أنها علاقة عميقة .

ولكن ..

ما مدى عمقها ..

وما سر عمقها ..

لست أدري ..

وجلست فوق الصخور .. أستريح .. وأفكر ... ووجه
الفتاة السراء معلق في خيالي .. انها جميلة .. أجمل مما كنت
أعتقد أو أتصور .. ان هذه الوجوه الافريقية ، أشبه بالليل ،
لا تستطيع أن ترى ما فيه الا بعد أن تتعود عيناك على النظر
فيه .. وعند ما تستطيع أن ترى في الليل ، تكتشف ما فيه من
جمال .. تكتشف أنه أجمل بكثير من الوجوه البيضاء .

والتفت الى حيث يقع « بلاج البيض » الذى تنتشر فيه
الشمسى الملونة .. لا يزال بينى وبينه مسافة طويلة .. ونظرت
فى ساعتى .. الثانية عشرة .. ياه .. لقد سرت على قدمى أكثر
من ثلاث ساعات .. ولن أستطيع أن ألحق بموعد سامى اذا عدت
ماشيا ..

وقمت واقفا .. ووسعت خطواتى وألأ أقفز فوق الصخور ،
عائدا الى كوبرى النيجر .. ووقفت عند مدخل الكوبرى ..
أبحث عن سيارة ، أو عن عربة ، تحملنى الى الفندق لألحق
بموعد سامى .

ومرت سيارة كبيرة .. لورى .. يقودها سائق وطنى ..
فأشرت اليه ، ووقف .. وطلبت منه أن يوصلنى الى الفندق ..
نطق اسم الفندق فقط ، ليفهم ما أعنيه .. وفهم وحرك أمامى
أصبعيه .. وفهمت .. أنه يطلب فرلكنين أجرا له ..
وركبت بجانبه ..

وطول الطريق وهو يردد كلمة باللغة الوطنية ، لا أفهمها ..
ولكنه يرددتها فى سخط وفى قرف ..

ثم بدأ يردد بالفرنسية كلمة : مطر .. مطر .. مطر ا
ويرفع يده ويخبط بها على عجلة القيادة ، ثم يعود يردد
كلمة : مطر .. مطر .. مطر ا

ولما وجدنى لا أعلق بشيء على الكلمة التى يرددتها ، التفت
الى ، ينظر الى بعينين واسعتين ، يياضهما تجرى فيه عروق
حمراء غامقة .. وقال كأنه يشور على :

— أتدري ماذا يعنى المطر .. يعنى أنى لن أشتغل ..
 مستد الأمطار جميع الطرق .. ويستغنى عنى صاحب السيارة
 .. وأجوع .. وأولادى يجوعون .. ان موسم الجوع بقى عليه
 أسبوعان ..

ولم أرد عليه ..
 خفت أن أخطئ فى اختيار الرد ، فيثور أكثر ..
 وعاد يخط على عجلة القيادة بكفه ، وهو يردد : مطر ..
 مطر .. مطر ..

وأنا جالس بجانبه ، متشبث بمقعدى .. أكنم الخوف فى
 صدرى .. الخوف أن يعطم السيارة ، ويعطم نفسه ، ويعطمنى
 .. قبل موسم المطر .. موسم الجوع !
 ونزلت من السيارة قريبا من الفندق ..

ووجدت سامى ينتظرنى على السلم الخارجى ونظر الى فى
 ريب عجيب ، وسألنى كأنه يحقق معى :
 — أين كنت يا دكتور ؟
 قلت :

— سرت حتى الكوبرى ..
 قال وهو ينظر فى وجهى بامعان :
 — هل رأيت شيئا جديدا ؟
 قلت وأنا أنظر فى وجهه حتى لا يكتشف كذبنى :
 — أبدا .. نفس ما رأيته أمس .. خفت أن أنحرف عن
 الطريق الذى أعرفه ، فاتوه !

وابتسم سامى فى راحة .. وقال :

— لنذهب الى البيت ..

قلت :

— ألا نستريح قليلا ؟

قال فى لهجة جادة :

— لا .. لا .. أخى سليم ينتظرننا !

قالها كأن أخاه سليم ، أعظم رجل فى العالم ، ولا يصح أن

لدعه ينتظرنا ..

وهزرت كتنفى فى استسلام ..

وذهبت معه ..



وبيت سامى .. شقة فى عمارة صغيرة ، مكونة من دورين ،

يرتفعان فوق دكان كبير ، يباع فيه كل شيء .. قطع غيار ..

وأقمشة .. ودقيق .. ومواد البناء .. وحلوى .. و .. و ..

وتصعد الى الشقة من سلم يقع خلف هذا الدكان الكبير ..

وكل العمارات فى باماكو بناها المهاجرون اللبنانيون

والسوريون .. ولذلك فهم يسمون فى كل بلاد افريقيا ،

بالمعمرين .. لأنهم يعرفون كل بلد ينزلون فيه .. ولكن يبدو

أن المهاجرين كانوا يعتمدون على أنفسهم فى الرسوم الهندسية

التي يبنون عليها العمارات .. فكل العمارات .. خصوصا

العمارات القديمة .. عجيبة فى هندستها .. لا تعرف كيف تدخل

فيها .. ولا كيف تخرج منها .. وقد قادني سامى الى خلف
الدكان الكبير .. وصعدنا .. ثم تفرع السلم الى سلمين .. ثم
دخلت في ممر .. وانحرف المردون أن أدري سبب انحرافه ..
ثم دخلت في باب .. ووجدت نفسى في مطبخ ، يقف فيه شاب
وطنى عارى الصدر .. يرتدى بنطلونا قصيرا .. ثم خرجت من
المطبخ لأجد نفسى في صالة ..

والأخ سليم واقف يستقبلنى ا
انه لدهشتى ، أصغر من سامى .. ان الطريقة التى كان
سامى يتحدث بها عن أخيه أقنعتنى أنه أكبر منه .. أقنعتنى أن
سليم هو رب العائلة .. ولكنه يبدو أصغر .. لا يمكن أن يتجاوز
الخامسة والعشرين من عمره ..
ورغم ذلك ، فهو يبدو كأنه رب العائلة ..
انه صارم التقاطيع ..
جاد النظرات .

لا يتسم .. لا يتسم اطلاقا ..
لقد استتجت توا ، أن سليم هو الأخ الذى يحمل
مسئولية ادارة تجارة الأسرة .. وأنه يحمل هذه المسؤولية وهو
يعلم أنه يحملها .. ويطالب أخاه بضمن حملها .. يطالب
بالسيطرة .

وأجلسنى سليم على أريكة في الصدر وجلس بجانبى .
بينما جلس سامى على مقعد بعيد ، كأنه يتأدب أمام أخيه ..
أخيه الأصغر ا

وطاف الحديث بيننا .. حديثا عاديا .. وسليم يكثر من الشكوى من قسوة العمل في باماكو .. ويحسد بقية المهاجرين في دكار .. وفي كوناكري .. وفي بقية بلدان افريقيا .. وهو في حديثه عن قسوة العمل يحاول دائما أن يبرز المجهود الكبير الذى يقوم به ..

وفتح باب جالبي ودخلت فتاة بيضاء .. وأشار سليم اليها وهو جالس ، وقال في لهجة أقرب الى الاحتقار :

— أختى سامية ..

وقمت واقفا أصافح سامية .. انها ضعيفة .. وجهها باهت .. يياضها ليس فيه لون الدم .. وخطوط كثيرة فوق جبينها ، وحول عينيها .. انها تبدو كأنها امرأة عجوز ، لولا بريق خافت من الشباب يبدو في عينيها ..

وجلست سامية على مقعد بعيد آخر في مواجهة سامى .. ونكست رأسها ، ووضعت يديها في حجرها ..

وقلت وأنا أجلس بجانب سليم :

— سامى .. وسليم .. وسامية .. لا بد أن الوالد كان يتفائل بحرف السين ! !

وقال سليم وهو يقلب شفتيه في قرف ، كأنه يسخط على ذكرى أبيه :

— لقد اعتمد الوالد على حرف السين ، لدرجة أنه مات مفلسا .. تركنا لا نجد ثمن الرغيف .

ورفع سامى رأسه ونظر الى أخيه وعيناه تبرقان في غضب .. ولمح سليم نظرته فواجهه بنظرة أقوى منها .. وما لبث سامى أن أطفأ نظرته ، ونكس رأسه وهو يهزه هزات بطيئة ، كأنه يزوم .. كأنه يمزق شيئاً في داخله .. ولاحظت كل ذلك ، وسكت ..

ثم قلت لسليم وأنا أحاول أن أخفف من هذا الجو القاتم الذى يحيط بى :

— أعتقد أنك أصغر من سامى ..

وهز سليم كتفيه ساخراً ، وقال :

— نعم يادكتور .. أنا الأصغر .. أصغر من سامى وأصغر من سامية ..

ثم التفت الى سامى ، وقال :

— أليس كذلك يا سامى ..

وهز سامى رأسه فى صمت ..

وعاد سليم يقول لى ، وهو يشير الى أخيه ، ثم يضرب بكفه على ساقه :

— حضرته أديب .. أديب كبير !

وسامى ساكت ..

وسامية رأسها منكس ، ويداها فى حجرها .

والحديث يدور بينى وبين سليم فقط ..

ثم صرخ سليم :

— لماذا لم ينته هذا الحيران من اعداد الطعام ..

ثم التفت الى قائلا :

— عن اذنك ..

وقام وخرج من الغرفة .. واستنتجت أنه ذهب الى المطبخ

ليشرف على الحيوان الذى يعد الطعام ..

وبمجرد أن خرج سليم ، رفع سامى رأسه وقال لى فى غضب

هامس :

— أبى لم يمت مفلسا .. أبى كان أشعر شعراء المهجر ..

كانت مجلات لبنان تنشر قصائده .. بل انه كان يصدر فى لبنان

مجلة أدبية .. كان رجلا عظيما .. ولكن أخى سليم يكرهه ..

كان دائما يكرهه .. صدقنى .. أبى كان رجلا عظيما .. سأريك

المجلات التى كانت تنشر صورته وقصائده .. مجلات لبنان !

ثم قام الى دولا ب قديم فى ركن من الصالة ، وأخذ يحاول

فتحه ..

وقامت سامية من مقعدها .. وتقدمت منى فى خطوات ليس

لها صوت .. كأنها تسير على أطراف أصابعها .. وقالت فى صوت

هامس كأنها تطلعنى على سر :

— هل زرت لبنان ..

فقلت وأنا أنظر فى وجهها لعلى أعرف سرها :

— نعم .. كثيرا ..

قالت وهى لا تزال تهمس :

— أنا زرت لبنان .. قضيت هناك ثلاثة شهور .. كانوا

يقيمون هناك المآدب لأبى .. و .. و .. كنت فى العاشرة من

عمرى ..

ولم تقف سامية عندما قالت انها كانت في العاشرة من عمرها
عندما زارت لبنان .. ولم تتنهد .. قالتها كأنها تتحدث عن شيء
حدث بالأمس القريب .. كأنها تستطيع فعلا أن تتذكر ما رآته
وهي في العاشرة من عمرها .. أو كأنها لا تزال تعيش في عمر
العاشرة ..

وقطعت سامية حديثها عن لبنان فجأة ، وقالت هامسة :
— هل تعرف الأستاذ عبد الوهاب ..
وأجبتها هامسا حتى لا أشعرها بأنها تهمس :
— انه صديقي ..

قالت :
— لقد كان صديق أبي .. هل تعرف ليلى مراد !
قلت :
— نعم ..
قالت هامسة :
— انها تغني ..

ولم تزد .. قالتها كأنها تبلعني خبرا خطيرا ، وهو أن ليلى
مراد تغني !

وفجأة ارتفع صوت صفعات من المطبخ .. صفعات عنيفة ..
وصوت سليم يصرخ بكلام لا أستطيع أن أعيينه ، أو أفهمه ..
وذعرت سامية .. وابتعدت عني سريعا بخطواتها الهامسة ..
وجلس في مقعدها .. ونكست رأسها .. ووضعت يديها في
حجرها ..

وانتصب سامى واقفا بجانب الدولار الذى يحاول فتحه ..
ونظراته يشع منها بريق عجيب .. وهذه الخلجة فوق شفتيه
العليا ترتعش .. وألفاسه تنهدج .. وقال كأنه يحدث نفسه :
— انه يضربه .. يضربه مرة ثالثة .. انه يضربه ..

وظل واقفا مكانه برهة وهو يضغط على حافة الدولار
بقبضته .. وجسده يرتعش .. كأنه يقاوم .. يقاوم شيئا عنيقا
قاسيا ..

وعاد سليم اليينا وهو يقول :

— آسف يادكتور .. هذا الحيوان لا يستطيع أن يفهم ..
انه حيوان .. تصور .. يجب أن أطهو الطعام بنفسى اذا أردت
أن أكل شيئا نظيفا ..

ثم التفت الى أخيه سامى .. ولما رآه واقفا فى حالته هذه ..
قال له فى لهجة آمرة ، كآله تعود عليها :
— اجلس .. لا تقف هكذا ..

وعاد سامى صاغرا الى مقعده ..

وجلس سليم بجانبى ، وقال بلا مقدمات :

— لقد أخبرنى سامى أنك دكتور نفسانى .. هل معنى
ذلك أنك تشفى الجنون ..

قلت وأنا أحاول أن أبدو بسيطا ، كأنى لم أر شيئا فى هذا
البيت يثير انتباهى :

— ليس كل أنواع الجنون ..

قال وهو ينظر الى فى غباء :

— ماذا تعنى ؟

قلت :

— ان الدكتور النفسالى هو الوحيد بين دكاترة الأمراض ،
الذى لا يشفى المريض .. ولكنه فقط يساعد المريض على
الشفاء ..

وعاد ينظر الى فى غباء ..

ثم نظر الى أخته سامية .. ثم التفت الى قائلا .. بلا مقدمات
أيضا .. والأمارات الحادة تملأ وجهه :

— هل تحب أن تسمع أم كلثوم ؟

ورفعت سامية رأسها بفتة ، وفى عينيها خوف غريب ..
وتوسل غريب أيضا ..

وقال سامى فى حدة :

— لا .. لا .. لا أحد يريد أن يسمع أم كلثوم ..

ونظر اليه سليم نظرة صارمة ، وقال له فى لهجته الآمرة :
— اسكت ..

وسكت سامى وهو يضغط احدى يديه بالأخرى فى حركة
عصية ..

وهمت سامية بالقيام .. فصرخ فيها سليم :

— اجلسى مكانك ..

ورفعت اليه يديها الباهتتين ، وقالت فى توسل :

— أرجوك .. أرجوك يا أخى .. أرجوك يا سليم !
وعاد يصرخ فيها :

— اسكتى ..

ثم قام وأخرج من جيبه حزمة مفاتيح وفتح الدولار ..
نفس الدولار الذى كان يحاول سامى أن يفتحه .. وأخرج منه
اسطوانة .. وضعها فى جرامفون قديم ..

وسامية ترتعش ..

وانطلق صوت أم كلثوم تغنى : غلبت أصالح فى روى ..
وتجمدت سامية فى مكانها ..

رفعت رأسها .. وتاهت نظراتها فى الفضاء ..

وسامى لا يزال يضغط احدى كفيه بالأخرى فى حركة
عصية ..

وسليم ينظر الى أخته فى قسوة ..

وبدأت الدموع تنبثق من عيني سامية ..

وأنا أنظر اليها ، كأنى أنظر من خلال ميكروسكوب ..

وانهمرت دموع سامية ..

صوت أم كلثوم ينساب .. كأنه ينساب دموعا على خديها ..

ثم بدأت تنشج بالبكاء .. ثم ازداد نحيبها .. وبدأت ترتعش ..
ثم صرخت ..

صرخة حادة .. كأنها لفظت قلبها مع صرختها ..

وقامت تجرى الى داخل البيت ، وهى تتعثر فى قطع الأثاث ..

وأسكت سليم الجرامفون ..

ونظر الى دون أن يتكلم ..

ووضعت عيني في عينه ، وقلت في بساطة كأن كل مشاهدته
لا يثير اهتمامي :

— ما لها الآنسة سامية ؟

ونظر الى في دهشة ، كأنه صدم بيرودي . وقال :

— هذا ما أريدك أن تعرفه .. أنت دكتور !

وضحكت ، ضحكة صغيرة ، وقلت :

— دكتور في أجازة .. أرجو لو كانت الإنسة سامية تعاني

أى حالة ، ألا تعتمد على في علاجها ..

ونظر الى في حدة ، وقال وهو لا يستطيع أن يتخلص من

لهجة السيطرة :

— سنتكلم فيما بعد .. والآن .. تناول الغداء .

ثم صرخ ينادى على الطباخ :

— ممدو ..

وجاء « ممدو » يحمل أطباق الطعام ووضعها على المائدة

الحشوية العتيقة التى تتوسط الصالة ..

كانت ألوان الطعام كلها لبنانية .. تبولة .. وكبيبة ..

وسلاطة

وقال سليم ونحن نجلس على المائدة :

— لقد علمت هذا الحيوان كيف يطهو الأطباق اللبنانية ..

ولكن لا فائدة .. انه حيوان ..

ثم مد ملعته ، وأكل من طبق التبولة .. ورفع رأسه ،

وانهال على « ممدو » بالشتائم .. شتائم باللغة الفرنسية ؟ !

ودق سامى بقبضة يده على المائدة كأنه لم يعد يطيق ،
وصرخ فى وجه أخيه :

— كفاية .. لا تشتمه .. اناك أنت الذى تصر على أن تجعل
منه حيوانا ..

ولم يتحرك سليم لثورة أخيه ..
وقال وهو يد ملعته مرة ثانية فى طبق التبولة :
— اسكت ..

وسكت سامى فعلاً ..
وأكلت بسرعة .. كنت قد تعبت من هذا الجو القابض ..
تعبت حتى من أنى طيب تقسانى ..
واستأذنت فى الانصراف ..
وقال لى سليم وهو يودعنى :
— متى أراك .. الى فى حاجة اليك ..
قلت فى برود :

— اتصل بى فى الفندق لتحدد موعدا ..
وتركته بسرعة ، كأنى أهرب من ضيق يجثم على صدرى ..
وسار معى سامى ليصبحنى حتى الفندق ..
لم يتكلم .. كان ينظر الى بوز حدائه ولا يتكلم ..
وأنا أنظر اليه بين الحين والحين .. وأحس بشفقة كبيرة
عليه .. ولكن لا أحاول أن أجره الى الكلام ..
وعندما وصلنا الى الفندق ، قال فى صوت ضعيف :
— أنا آسف .. لعلنا أزعجناك بهذه الدعوة .

قلت :

— أبدا .. لقد قضيت وقتنا سعيدا .. ولكنى متعب ..

قال فى تردد :

— هل أراك فى المساء .. ان باماكو تبدو دائما جميلة فى

المساء ..

قلت وأنا ابتسم له :

— اتفقنا .. مر على الساعة الثامنة ..

وتركته وصعدت الى غرفتى ..

كانت الساعة الخامسة .. وكنت متعبا فعلا .. حاولت أن

أسجل ملاحظاتي فى مذكراتي فلم أستطع ..

نمت ..



وصحوت فى الساعة السابعة .. وارتديت ثيابى .. البنطلون

والقميص أيضا .. ولزلت الى بهو الفندق أتناول الشاى ،

وأتظر سامى ..

ومرت الساعة الثامنة ، ولم يحضر سامى .. التاسعة ، ولم

يحضر ..

العاشرة ، ولم يحضر ..

وابتسمت ..

ابتسمت لأنى فعلا كنت أريد أن أرى سامى .. وكنت

أتظره بلهفة .. لهفتى على أن أكتشف سرا من أسرار افريقيا ..

وهذه هي المرة الثانية التي يخلف فيها موعده معي .. وتخيلته
كأسد يراوغني قبل أن أصطاده .. ولهذا ابتسمت !
وصعدت الى غرفتي ، وقد قررت أن أقرأ كتابا ..
وما كدت أقرأ بضع صفحات ، حتى سمعت طرقات عنيفة
على بابي ..

لا بد انه سامي ..
ونظرت في ساعتى .. الحادية عشرة والنصف ..
وقمت وفتحت الباب ..
انه ليس سامي ..
انه سليم ..
وصرخ سليم في وجهي :
— أخى يا دكتور .. سامي أخى .. انه مجنون .. مجنون ..
أرجوك يا دكتور .. أسعفنا ..
قلت :

— ماذا جرى له ..
قال :
— لن أستطيع أن أصف لك .. سترى بعينيك .. أرجوك ..
تعال معي !
قلت :
— الى أين ؟
قال :

— هناك .. فى الغابة القريبة .. انه مجنون .. مجنون ..
وارتدبت ثيابى بسرعة ..
وهممت أن أخرج مع سليم ، ثم عدت سريعا ، والتقطت
حقيبتى الطبية الصغيرة ..
وخرجت .. وسليم يصيح بجائى :
— انه مجنون .. مجنون ..

— ٣ —

وقفز سليم الى مقعد القيادة فى سيارة « بيجو » فرنسية ،
عتيقة .. وهو يصيح :

— أسرع يا دكتور .. أرجوك .. أسرع .. الحالة خطيرة !
ولحقت به ، وجلست بجانبه .. وقاد السيارة بسرعة مجنونة ،
حتى اضطرت أن أتثبت بحافة الباب بكلتا يدي .. ولم أحاول
أن أنصحه بأن يهدىء من السرعة .. كنت أعلم أنه فى حالة
لا يجدى معها النصح ..

واستسلمت وأنا أحاول أن أجمع فى ذهنى خطوط هذه
العائلة الغريبة التى التقيت بها مصادفة فى مدينة باماكو .. فى
قلب افريقيا ..

سامى .. الأخ الكبير الذى يحنى رأسه أمام أخيه الأصغر ،
ولا يستطيع أن يرفع صوته فى مواجهته ، ولا أن يواجهه بعينه ..
والذى يهتز وتنتابه حالات متناقضة غريبة كلما جاء ذكر الزنوج
الوطنيين ..

وسامية الأخت الكبيرة ، التى لا تزال تعيش فى ذكرى

زيارتها للبنان عندما كانت في العاشرة من العمر .. والتي تبكى ،
ثم تصرخ في جنون ، عندما تسمع صوت أم كلثوم ..
وسليم .. الأخ الأصغر .. الجاد الصارم ، الذى يبدو قاسيا ،
مكروها .. والذى لا يخضع لارادة أخيه الأكبر منه ، وأخته
الأكبر منه أيضا .. ويضرب خادمه الزنجى ..
والأب الذى مات .. ولا أدري متى مات .. والذى يقول
عنه سليم انه كان فاشلا .. ويقول عنه سامى انه كان رجلا
عظيما ، وأديبا كبيرا ، تنشر المجلات اللبنانية صورهِ ..
ولم أستطع أن أربط هذه الخطوط بعضها ببعض ..
ولم أحاول أن أستتج منها شيئا ..
كنت في انتظار أن تساعدني الأحداث على اكتشاف سر
هذه العائلة .. السر الذى كان يبدو في خيالى كأحد أسرار
أفريقيا ، التى لم يكتشفها أحد قبلى ..
وسليم يقود السيارة بالسرعة المجنونة ..
وأنا لا أزال متشبثا بحافة باب السيارة .. بكلتا يدي ..
واتهينا من الشارع الطويل الذى يشق الحى الافرنجى ،
بمدينة باماكو .. وبدأنا نعبّر الكوبرى الطويل المقام على نهر
النيجر .. ثم اتهينا من الكوبرى .. وانهى الطريق المرصوف ،
وبدأت السيارة تهتز بعنف فوق طريق مترب مليء بالمطبات ،
تبدو في ضوء فانوس السيارة كأنها تقوب غربال ضخمة ..
واختفت كل مظاهر العمران ..
اتنا في قلب الغابة ..



الأشجار على الجانبين ، تبدو في الليل كأنها أشباح سوداء ..
تتحرك مع الهواء ، فيخيل اليك أنها تجري فحوك .. والهواء
الرطب يزداد ثقلا .. يكاد يجثم على صدري .. وأصوات
الطيور تنطلق من فوق حواف الشجر ، كأنها أجراس صغيرة
تتلأ السماء ، وينطلق من بينها بين الحين والحين ، صوت غليظ
منفر .. كأنه الشخير المزعج .. لا أدري من أين ينطلق ، ولا من
يطلقه ..

وأحمست بالرهبة .. وتصورت أننا قد نلتقي بأسد .. أو
بقطيع من القيلة .. أو فهد يقفز فوق رؤوسنا .. والتفت الى
المقعد الخلفي من السيارة ، أريد أن أطمئن الى أن سليم قد حمل
معه بندقية .. ولم أجد في السيارة بندقية ، أو سلاحا ..
ونسيت وسط هذه الرهبة المثيرة ، والخوف اللذيذ ..
قصة سامي .. بل نسيت سليم أيضا ..
ولكنني فجأة ، عدت أسأل سليم ، كأنى أحاول أن أذكر
نفسى بجمتى :

— ماذا يفعل سامي في هذه الغابة ..

وأجاب سليم في صرامة :

— سترى بنفسك .. انه مجنون .. مجنون ..

ثم سكت ، وعاد يخلق بكل عينيه ، في الشعاع القصير
المنطلق من مصباح السيارة ..

وعادت رهبة الغابة تطوينى ..

وبعد برهة انطلقت أسأله مرة ثانية كأنى أحاول أن أبدد
رهبتى

— أليس فى هذه الغابة ، وحوش ..
وأجاب .. فى صرامة أيضا :

— فيها نوع من الانسان ، ألن من الوحوش ..
وسكت . وعاد يبخلق فى الشعاع القصير المنطلق من مصباح
السيارة .. والسيارة تقفز بنا فوق المطبات ، كأننا نركب ظهر
حيوان متوحش !

وبعد ثلاثة أرباع ساعة ، بدأت أسمع صوت طبول ضخمة
تأتى من بعيد .. طبول مختلفة الأنغام .. دقاتها سريعة منعمة .
قوية ..

وقلت فى دهشة :

— ما هذا ؟

وقال سليم وهو يلوى شفتيه فى قرف مر :

— حفلة رقص ..

وكلما تقدمت بنا السيارة ازدادت قرعات الطبول قوة
وسرعة .. حتى خيل الى أن كل أشجار الغابة ليست سوى طبول
تضرب عليها أيد مجنونة عنيفة فى جنونها ..

ولم أعد أسمع صوت موتور السيارة ..

ولم أعد أسمع صوت العصافير ..

ليس فى أذننى سوى هذه الدقات العنيفة ، تكاد تحطم

رأسى ..

وانحرف سليم بالسيارة داخل الغابة .. ثم أوقفها بين
الأشجار ، وأطفأ نورها .. والتقط من جانبه مصباحا صغيرا
بيطارية ، ونزل من السيارة قائلا ، وأنا لا أكاد أتبين صوته :
- تعال يا دكتور ..

ثم أمسك بيدي .. وأطلق نور مصباحه .. وسار وهو يحني
الظهر ، كأنه يختبئ بين أغصان الأشجار .. وأحنيت قامتي
مثله ، وسرت وراءه ، وهو يشدني من يدي .
وصوت الطبول العنيفة يخرق أذني .. ويضرب على قلبي .
وضوء أمامنا بدأ يبدو من بين الأغصان .. ضوء خافت .
ومع صوت الطبول ، تبينت صوت تصفيق سريع منغم .
ثم بدأت أتبين أصوات كلام لا أفهمه .. عشرات من الناس
يتكلمون ..

ومن وسط الكلام ترتفع صيحات .. صيحات مرحة !
واقتربنا ..
وبدأت أتبين وسط الظلام ، حواف أكواخ تبدو من خلال
الأشجار .

ثم اقتربنا أكثر ..
وجلس سليم على إحدى ركبتيه مختبئا وراء شجرة صغيرة ،
وأنا مختبئ بجانبه ..
وعيناي متسعتان على آخرهما .. وأنفاسي مبهورة .
إنها قرية صغيرة .. لا يزيد عدد أكواخها عن عشرين ..
أكواخ من الطين المعطى بفروع الشجر .. وأمامها ساحة واسعة

جرداء .. نصبت في وسطها ، طبلتان كبيرتان .. يقف أمامهما
رجل عملاق يضرب عليهما بعصاتين غليظتين .. وعلى الأرض
فانوس يوقد بالغاز ، كالفانوس الذي يستعمل في اضاءة
خيمات الكشافة .. وأهالي القرية ملتفون في حلقة .. صدورهم
عارية .. ونهود النساء تتدلى عارية كأكواز العنبر فوق أغصان
دقيقة .. والجميع يصفقون صفقات سريعة مع دقات الطبول ..
وفي وسط الحلقة فريق منهم يرقص .. رقصات مجسونة ..
خطواتها أسرع من المارنجي والسامبا .. الأقدام سريعة ..
سريعة .. حتى لا تكاد تبدو من سرعتها .. وكل راقص ، أمامه
راقصة .

وبين الراقصين .. سامي !!

عاري الصدر ..

يبدو جسده الأبيض وسط كل هذا السواد ، كأنه شهاب
يشق الليل .. وهو يرقص ..

انه أبرع وأسرع من جميع الراقصين ..

وأمامه فتاة .. ترقص معه ..

نفس الفتاة التي رأيته في قهوة فاني .. والتي قابلتها على
شاطئ النيجر ..

وركزت عيني المبهورتين من خلف الشجرة التي أختبئ
وراءها ، فوق وجه سامي ..

ان العرق يتساقط بغزارة فوق جسده ..

وعينه متسعان اتساعا غريبا ..

ونظراته فيها هذا الطابع الذى أعرفه جيدا .. طابع الجنون .

وهو يرقص ..

بغنف ..

وينزل على الأرض بظهره ، وقدماه ثابتتان .. حتى يلامس
ظهره الأرض .. ويرتعش ، ارتعاشات غريبة .. ويمرغ رأسه فى
التراب .. والفتاة تميل عليه ، وهى تهز يديها العاريين فى وجهه ،
هزات عنيفة سريعة ، كأنها تهرش بهما وجهه ..

ثم فجأة ينتفض سامى واقفا على قدميه .. وتنتفض الفتاة
معه .. ويرقصان .. والعرق يسبح من فوقهما .. كأنهما يلعبان
فى بحر من العرق .. والنظرات المجنونة فى عينيه .

وفور قوى ينطلق من بياض عينيه فيضىء وجهها كله ..
وابتسامة غريبة ترقص فوق أسنانها البيض ..

والتفت الى سليم المختبئ معى خلف الشجرة .. ان وجهه
متقلص كأنه أصبح قطعة من المطاط المنكمش .. وقبل أن أسأله
عن شىء .. قام واقفا ، وهو يقول فى صرامة :

— تعال معى ..

ثم دخل الى الساحة الجرداء .. ساحة الرقص ..

وأنا وراءه .. أرتعدا

ورأى بعض الأهالى سليم ، فكفوا عن التصفيق ..

ورآه بعض الراقصين ، فكفوا عن الرقص ..

والتفت اليه قارع الطبول ، فكف مرة واحدة عن قرع

الطبل ..

وتوقف الرقص فجأة ..
توقف كل شيء ..
ساد صمت رهيب مخيف ..
حتى مليور الغابة ، ليس لها صوت ..
وعيناي مركزان فوق سامي ..
والتفت سامي حوله في دهشة ، كأنه يتساءل عن سر توقف
كل شيء ..
سر توقف الحياة ..
وعند ما سقطت عيناه على أخيه سليم ، انطلقت منهما
نظرة مخيفة .. نظرة مجنونة .. خيل الى أن عينيه انطلقتا
كرصاصتين مصوبتين الى قلب أخيه ..
وبدأت أنفاسه تنهدج ..
وتزداد تهدجا ..
وخلجة من وجهه فوق شفته العليا .. ترتعش في عنف ..
تكاد تنفصل عن وجهه ا
والعرق يزداد تصببا من جسده وتقف حباته — حبات
العرق — فوق جبينه كمسامير مزروعة في رأسه .
ثم رفع ذراعا مرتعشة ، وأشار بأصبعه الى صدر أخيه ..
وبدأ يتكلم ..
تكلم أولا بصوت خفيض .. ثم بدأ صوته يرتفع .. ويرتفع
حتى أصبح صراخا .. وكان يتكلم بلغة غريبة ..
لغة لا أفهمها ولا أعرفها ..

وأخوه سليم واقف أمامه لا يهتز .. وعيناه تقابلان في ثبات
العينين المجنوتتين ..

وسامى لا يزال يصرخ ..

وهمست لسليم بصوت يحشرجه انفعالي مما أرى :

— بأى لغة يتكلم ؟

قال وهو لا يرفع عينيه عن أخيه المجنون :

— لغة « الolf » .. لغة الزوج !!

قلت :

— ماذا يقول ؟

قال :

— انه يقول اننا الشياطين البيض ، وقد جئنا لنخطف

الزوج ..

قلت :

— يبدو من عينيه أنه لا يعرفك ، ولا يعرفنى ..

قال :

— لا .. انه لا يعرفنى وهو فى هذه الحالة ..

قلت :

— كلمه بالعريية ..

قال :

— لن يفهمنى ..

قلت :

— حاول ..

وقال سليم لأخيه ، وهو لا يزال مركزا عينيه فوق وجهه :
— أخي سامى .. أنا أخوك .. جئت لأصحبك الى البيت .
ولم يبد على سامى أنه فهمه .. واشتد صراخه .. وأخذ
يتلفت الى الأهالى ، وهو يصرخ فيهم كأنه يحضهم على شىء ..

وقلت لسليم :

— ماذا يقول الآن ؟

قال :

— انه يطلب منهم أن يقتلونا .

قلت فى رعب :

— هل يقتلوننا ؟

قال فى ثبات :

— لا .. لا تخف !!

والأهالى واقفون فى صمت .. ينظرون الى سامى نظرات
خيل الى أن فيها كثيرا من الحنان والحب .. وجوههم حزينة ،
كأنهم على وشك البكاء .. تم يلتفتون الى سليم ، كأنهم فى
انتظار ما يفعله ، وكأنهم يتوسلون اليه .. يتوسلون اليه لماذا ..
لا أدري .. ولكنه مجرد احساس ألم بى وأنا أرقب عيونهم .
والفتاة التى كانت ترقص مع سامى واقفة بجانبه .. هى
وحدها التى ينطلق من عينيها نظرات غاضبة قاسية .. تكاد
تكون نظرات مجنونة .. توجهها الى سليم ..
وسامى لا يزال يصرخ ، ويشير يديه اشارات عنيفة ..

ثم لم يعد في صراخه كلام .. أصبح مجرد صراخ .. صراخ
 حاد .. كصراخ حيوان مجروح وقع في فخ .. ويضرب الهواء
 بيديه .. ثم يشد شعر رأسه .. ويصرخ ..
 ثم فجأة التقط سامي العصا الغليظة التي كان يستعملها
 قارع الطبل .. ورفعها في الهواء .. وهجم على أخيه سليم ..
 بكل قوته .. بكل قله .. كأنه ثور هائج ..
 ويبدو أن سليم كان ينتظر هذه المفاجأة .. فقد لمحته يتخذ
 في وقته وضعا معيناً .. ويركز قدميه في الأرض .. ثم ما كاد
 أخوه سامي يصل إليه حتى أمسك بذراعه التي تحمل العصا ،
 ولواها بعنف ، فسقط سامي على الأرض ، وهو يصرخ ،
 ويضرب الهواء بساقيه .. وسقط فوقه سليم ، ورفع كفه
 ليصفعه فصرخت فيه :

— لا تفعل .. لا تضربه !

ثم ركعت بجانبهما على الأرض .. وفتحت حقيبتى الطيبة .
 وأنا أقول لسليم :

— ثبت ذراعه بقوة !

ثم بدأت أعد بسرعة حقنة مخدرة ..
 والأهالي من حولنا يهمهمون في صخب وسخط .
 وما كنت أهم بنغز الابرة في ذراع سامي الذي لا يزال
 يصرخ حتى أحسست بلكمات عنيفة فوق ظهري ..
 والتفت ..
 انها نفس الفتاة ..

وتركتها تضربني فوق ظهري ، وحقت سليم ..

ومرت لحظات ..

وسامى يخور ، ويرفس بقدميه .. وسليم فوقه يشل حركته
والفتاة لا تزال تضربني فوق ظهري .. وتصرخ بكلام لا أفهمه
كلام بلغة الولى ..

وسرى المخدر ..

وهذا خوار سامى ..

ثم ..

نام ..

وقمت واقفا .. ونظرت الى الفتاة .. وواجهتني بنظرة أخرى
كلها تحد .. ثم بصقت فى وجهى ، وهى تصيح بلغتها الفرنسية
الغريبة التى يخيل اليك وأنت تسمعها أن انسانا آخر يجلس فى
حلقها .. انسان أبيض :

— خنازير .. وحوش ..

ثم ..

ثم أخفت وجهها يديها .. وأخذت تبكى بحرقة .. وحرارة
.. ثم سقطت على الأرض .. تحت أقدامى .. وتجمع حولها
بعض زميلاتنا ..

ونادى سليم بعض أفراد القبيلة ، عاونوه على حمل سامى ،
وساروا به الى السيارة ..

ومسحت الرذاذ الذى أصاب وجهى من بصقة الفتاة ،
وسرت وراءهم فى موكب حزين ا

وقلت لسليم ، ونحن عائدون ، وسامى ملقى فى المقعد
الخلفى من السيارة :

— هل تحدث له هذه الحالة كثيرا ..

قال ولهفته اللبناية تملأ شذقيه :

— كثيرا يا دكتور .. مرتين فى الشهر .. وأحيانا ثلاثا ..

ثم التفت الى ، وقال بلهفة :

— هل تستطيع أن تشفيه يا دكتور ..

قلت وأنا قائم فى تشخيص حالة سامى :

— لا أدرى .. لا أستطيع أن أؤكد ..

قال فى توسل لم أعهد منه :

— أرجو يا دكتور .. حالته معروفة فى كل البلد .. وكل

الجياليات هنا تظلمنا بسببه .. انهم يحتقرونا .. الفرنسيون

يحتقرون عائلتنا .. والمهاجرون العرب أيضا يحتقروننا وأنا

لا أستطيع أن أعمل .. تجارتي تكاد تتوقف ..

قلت كألئى لم أسمع كلامه :

— كيف عرفت أنه فى هذه القرية ؟

قال :

— انه يلجأ دائما الى هذه القرية عند ما يختفى من البيت

.. وأحد أفراد القبيلة يعمل عندى فى الدكان ، ويبلغنى كلما

لجأ اليهم سامى ..

قلت :

— دائما هذه القرية ؟

قال :

— دائماً يا دكتور ..

قلت :

— منذ متى ؟

قال :

— منذ عامين .. ربما قبل ذلك .. ولكنى لم أعلم الا منذ

عامين ..

ووصلنا الى البيت .. وتعاونت مع سليم على حمل سامى ،
ووضعه فى فراشه ..

وكنت أعلم أن مفعول المخدر ينتهى بعد ساعة ونصف ..
وقد قطعنا طريق العودة فى ساعة .. بقى نصف ساعة ويفيق
سامى ..

وقررت أن أنتظر حتى يفيق ..
كنت أريده أن يرانى بمجرد أن يفتح عينيه حتى أشعره بأنى
علمت بحالته ..
ومرت الدقائق ..

وأنا وسليم صامتان .. لا أريد أن أسأله عن شيء .. وهو
يخشى أن يحدثنى حتى لا يضايقنى ..
وبدأ سامى يفيق ..

بدأ أولاً يتكلم كلمات مقطعة بلغة الولىف ..
ثم بدأ يتكلم باللغة العربية .. وكان أول ما قاله .. وهو
يهز رأسه على الوسادة ، هزات عنيفة ..

— سليم .. أخى سليم .. لا تتركنى يا أخى ..
ونظرت الى سليم ..
ورأيت دموعا صامتة تجرى فوق خديه ..
وتمجبت ..
لم أكن أعتقد أن سليم ، رقيق الى هذا الحد .
ثم ..
فتح سامى عينيه ..
وكان أول شيء رآه .. وجهى ..
وارتجفت جفونه فوق عينيه .. ثم عاد ينظر الى وجهى :
وقمت من جالبيه ، وأنا أقول له :
— استرح .. يجب أن تستريح !
ثم تركته ، وحملت حقبتى ، وانصرفت ..
وهو لا يتكلم ..
ولم أكن أريد فى هذه الساعة أن أبدأ علاجه .. كنت أريد
أن أترك له الفرصة ليقرر بنفسه ، اذا كان يريدنى أن أعالجه
أم لا .. ان العلاج النفسى يعتمد أولا على رغبة المريض الحرة
فى أن يعالجه الطبيب .. والا فثقل كل علاج .
وسار معى سليم ليصحبنى بسيارته حتى الفندق .. وسألته
خلال الطريق :
— أين الآنسة سامية .. لم أرها ؟
قال وهو يتنهد كأنه يتحدث عن مصيبة أخرى :
— نائمة ..

وتركته عند باب الفندق ..
ودخلت حجرتي .. وجلست أدون في مذكراتي الطيبة حالة
سامي ، وكل ما شاهدته ، ثم كتبت كلمتين :
« ازدواج الشخصية » !
ونمت وأنا أتمنى أن ياتي سامي لزيارتي في الصباح ..

- ٤ -

صحوت من نومي مبكرا .. قبل الموعد الذي تعودت أن أصحو فيه ..

والواقع أني نمت نوما قلقلنا ، أقلقتنى خلاله محاولة دراسة حالة سامي .. ولم تكن هذه الحالة غريبة على .. حالة ازدواج الشخصية .. فقد سبق أن مرت على حالات كثيرة لازدواج الشخصية ونجحت في علاجها . ولكن الظروف المحيطة بسامي ، والتي لا بد أن لها أثرا كبيرا في ازدواج شخصيته .. ظروف افريقيا .. كانت جديدة على .. غريبة .. مثيرة .. فلم ألتق من قبل بحالة تزواج فيها شخصية زنجي ، وشخصية رجل أبيض ترى ما سر هذا الازدواج ؟

ان ازدواج الشخصية يعنى معركة دائمة بين العقل الواعى ، والعقل الباطن .. وفي كل منهما تعيش شخصية .. شخصية في العقل الواعى .. وشخصية في العقل الباطن .. ويتنصر العقل الواعى حينما يفرض شخصيته على تصرفات الانسان .. ويتنصر العقل الباطن حينما آخر ، يفرض شخصيته بدوره .. وفي كلتا الحالتين تستمر المعركة ..



فما هو سر المعركة في نفس سامى ؟
وماذا يشيرها ؟

وقمت من فراشى ، وأنا شارد وراء هذه الحواظر ، وارتديت
ثيابى ، وجلست فى انتظار سامى ..
كنت متأكدا أنه سيأتى الى بعد أن عرف أنى علمت بحالته .
وكنت أريده عند ما يأتى أن يجدنى فى غرفتى لا فى بهو
الفندق ، حتى أبدأ فى تحليله مباشرة .. فطلبت فطورى داخل
الغرفة .. ثم جلست أنتظر .. مرت الساعة السادسة والنصف
صباحا ، وهى الساعة التى تعود سامى أن يزورنى فيها .. ولم

يأت .. ومرت الساعة السابعة ولم يأت .. والثامنة .. والتاسعة..
وأنا جالس في غرفتي كطبيب فاشل ينتظر أن يمن عليه أحد
المرضى بزيارته ..

وفي الساعة العاشرة والنصف سمعت طرقات على بابي ..
طرقات خفيفة ، متردة ، ليست كالطرقات العنيفة التي
تعودتها من سامي ..

ورغم ذلك انتفضت واقفا ..
ربما كان هو سامي ، ولكن طرقاته خفت وهو يطرق بابي
كمرضى لا كصديق ..
وفتحت الباب ..
لا .. ليس سامي ..
انها أخته سامية ..
انها حالة أخرى ..

وبسرعة انتقل كل عقلي من حالة سامي ، الى حالة
سامية .. الفتاة الكبيرة التي جاوزت الخامسة والعشرين من
عمرها .. والتي تبدو باهتة في لون المرض .. وتعيش في ذكرى
زيارتها للبنان عندما كانت في العاشرة من عمرها .. وتسألني
عن الأستاذ محمد عبد الوهاب والسيدة ليلى مراد .. وبكى
وتصرخ عندما تسمع صوت أم كلثوم ..

ووقفت سامية على الباب لا تريد الدخول .. وتنتظر الى
في تردد يبدو من خلاله شيء كالخوف ..
وابتسمت لها ابتسامة كبيرة ، وقلت في بساطة :

— أهلا سامية .. اتفضللى ..
وعادت تنظر الى هذه النظرات المترددة التى يبدو فيها
الخوف ..

ولم ألح عليها مرة ثانية ..
خفت أن يؤدى الخاحى الى ازدياد خوفها ، وهروبها ..
وبقيت واقفا أمامها محتفظا بإبتسامتى الكبيرة ، متعمدا أن
أنظر اليها نظرة هادئة ليس فيها دهشة ، وليست نظرة فاحصة ..
وبعد برهة رفعت سامية اصبعها ووضعته فى فمها .. كما
يفعل الأطفال .. وأخفت رأسها وهى تبتسم فى خجل ساذج ..
ثم خبطت داخل الغرفة ..

وأغلقت الباب وراءها .. وأنا أشير لها الى المقعد الكبير
الوثير فى الحجرة ، وأقول فى حنان :
— اجلسى يا سامية ..

والتفتت بسرعة الى الباب الذى أغلقته وراءها .. ونزعت
اصبعها من فمها .. ونظرت الى فى تساؤل خائف ..
وقلت لها ردا على خوفها :
— كيف حالك .. وكيف حال اخوتك ..

ولم تجبنى ..
ظلت تنظر الى برهة هذه النظرات الخائفة .. ثم هدأت
نظراتها .. واتجهت الى المقعد الكبير فى خطوات هامسة ، كأنها
تسير فى نومها .. وجلست .. وعادت تضع اصبعها فى فمها ..
وتبتسم فى خجل ساذج ..

وجلس على مقعد آخر قبالتها .. وأنا صامت .. وهى صامته .. ثم قمت وفتحت أحد الأدراج وأخرجت صندوق بسكوت أحتفظ به دائماً خلال رحلاتى ، لأتناول منه اذا جعت بين وجبات الطعام .. وقدمت اليها الصندوق .. وأنا أقول :
— هذا بسكوت من مصر ..

ورفعت اصبعها من فمها .. ونظرت الى نظيره فرحة .. وترددت قليلا .. ثم أخذت قطعة بسكوت .. واحتفظت بها فى يدها .. لم تأكلها ..

قلت :

— لماذا لا تأكلينها .. ان مصر مشهورة بالبسكوت ؟

قالت فى صوت خافت خجل :

— سأحتفظ بها .. ذكرى من مصر !

قلت :

— كلى هذه القطعة .. وخذى قطعة أخرى للذكرى !

وابتسمت ..

وقطعت قطعة صغيرة من البسكوت ، ثم وضعت يديها فى حجرها ، ونكست رأسها .. وعادت الى الصمت ..

وتمسكت أنا أيضا بالصمت ..

تركناها تقاوم نفسها ، لتبدأ فى الحديث ..

وفجأة رفعت رأسها ، وقالت فى صوت رفيع كأنه صوت طفلة :

— هل ستذهب الى لبنان بعد أن تغادر باماكو

قلت كاذبا .. وأنا أنظر اليها نظرة فاحصة :

— نعم .. سأذهب الى لبنان ..
ولمعت عيناها ببريق حاد ، وقالت كأن الطفلة تهم بالبكاء :
— هل تأخذني معك ؟
وانتظرت قليلا ، ثم قلت في هدوء كأن ليس فيما تطلبه
غرامة :

— يسعدني أن آخذك معي ..
قالت في فرح :

— متى ؟
وأنا أعلم أن الكذب ليس الطريق الصحيح لعلاج المريض
النفساني ، ولكنني وجدت نفسي مضطرا للكذب في هذه الحالة ..
لم يكن لدى الوقت الكافي لاتباع الطرق السليمة في العلاج ..
وقلت وأنا أخفي كذبي تحت ابتسامتي :
— ربما بعد أربعة أيام ..
قالت وهي تهلل كالأطفال :

— صحيح ؟
قلت :

— صحيح .. ولكن .. حدثيني عن لبنان .. افك تعرفينه
أكثر مما أعرفه ..

وألقت رأسها على المسند الخلفي للمقعد ، وقالت والسعادة
تبرق في عينيها :

— لبنان جميل .. جميل .. انه جنة .. لقد كنا نقيم هناك
في عالية .. فوق بيروت .. كنا نقيم في قصر كبير .. وفي كل يوم

كنا نزل الى بيروت .. ان بيروت كبيرة .. مزدحمة .. فيها كل شيء .. كل شيء تريده تجده هناك .. و ..

وتركناها تتكلم ، وقمت من جانبها ، وأمسكت بدفتر مذكراتي الطيبة ، وجلست خلف رأسها ، على حافة السرير .. كنت أريد أن أبتعد عن عينيها ، حتى أتركها تتحدث الى نفسها بصوت عال ..

واستطردت سامية قائلة :

— وكانوا يقيمون هناك حفلات لأبى .. كل ليلة يقيمون له حفلة .. وكان يقف ويلقى قصائد من شعره .. والناس تصفق .. كل الناس تصفق .. وتهلل .. تصفيقا كثيرا .. و .. واستطردت طويلا في حديثها عن الحفلات التي كانت تقام لأبيها في بيروت .. كانت تصف كل حفلة بأدق تفاصيلها .. تصف حتى ألوان الطعام .. وأشكال الأطباق والشوك والسكاكين .. وتذكر أسماء كثير من المدعوين .. كانت تتكلم كأنها حاضرة في الحفلة .. كأن كل هذا حدث اليوم ، لا من عشرين سنة ..

ولكنني لاحظت أنها في خلال حديثها الطويل ، لم تتحدث عن نفسها أبدا .. لم تقل ماذا كانت تفعل خلال هذه الحفلات .. وقاطعتها قائلاً ، وأنا أجلس خلف رأسها :

— هل كنت تحضرين هذه الحفلات ؟

وسكتت مرة واحدة .. ولم تلتفت الى برأسها .. ظلت عيناها معلقين في الفضاء .. كأنها نسيت أني معها في الحجرة ..

وكان صوتي ينبعث من داخلها ، لا من شخص آخر يجلس معها ..

وتنفست سامية بعنف ، كأن شيئاً يضغط على صدرها ..
ولم تجب على سؤالى ..
عادت تتحدث عن لبنان ، والحفلات التى أقيمت لهم هناك ..
وقالت :

— وكانت جرائد لبنان تكتب عن أبى .. كل يوم تكتب عنه .. وتنشر صورته ..
وقاطعتها قائلاً :

— وصورتك أنت .. هل كانت تنشر فى الصحف ..
وسكتت مرة ثانية .. وبدأت تعود الى التنفس بصعوبة ..
ووجهها يزداد بياضا ..
ثم قالت كأنها تحلم :

— صورتي .. صورتي ..
ثم استراحت أُنْفاًسها ، واستطردت :
— كانت الجرائد تنشر كل قصائد أبى .. كان له ديوان من الشعر .. و ..

لقد استطاعت مرة ثانية أن تهرب من سؤالى .. اذ هناك شيئاً تهرب منه رغم ارادتها .. شيء لا تملك القدرة على مواجهته ..

وتركتها تتحدث عن لبنان طويلاً ..
ثم فاجأتها بسؤال آخر :

— وماذا حدث بعد أن رجعت من لبنان ؟

وسكتت ..

وفي هذه المرة ازدادت أنفاسها ثقلا ، حتى خيل الي أنها
تحترج .. وازداد وجهها بياضا .. وقبضت بقوة على مسندي
المقعد الذي تجلس عليه ، حتى ثقلت عروقها من تحت جلد
يديها .. وبدأت قطرات من العرق تنبثق فوق جبينها .. ولم
تجب على سؤالى ..

مرت فترة كافية ، ولم تجب ..

وأعدت السؤال بلهجة أكثر حزما ، كآلى أطاردها ..

— ماذا حدث بعد أن رجعت من لبنان ؟

وأصبحت أنفاسها خوارا .. وبدأ يبدو عليها أنها تخوض
معركة عنيفة .. قاسية .. تمزق أعصابها .. وتمزق أنفاسها ..
ثم قالت فى صوت عال .. عال جدا .. كأنها استطاعت أخيرا
أن تفر من المعركة :

— وفى لبنان زار أبى رئيس الجمهورية .. وأنعم عليه

بوسام .. و ..

وسكتت مرة واحدة ..

ثم أحت رأسها ، ووضعت يديها فى حجرها ، وهذأت ..
وقطرات العرق لا تزال معلقة فوق جبينها ..

واستتجبت أنها لا تريد أن تتذكر شيئا بعد عودتها من
لبنان وهى معلقة .. لا تستطيع أن تتذكر ..

وفى نفس الوقت لا تريد أن تتذكر ما كانت تفعله هى فى

لبنان .. أو لا تستطيع أن تتذكر .. انها ترى الصورة .. صورة
لبنان .. ولكنها لا ترى نفسها في هذه الصورة .. ترى أباه ..
واخوتها .. وتعلم أنها كانت معهم .. ولكنها لا ترى نفسها ..
وكان من المستحيل أن أستمر في تحليلها .

كانت قد تعبت .. بحيث لم تعد تحتل مزيدا من التشخيص
العلاجي .. فقامت من خلف راسها .. وتقدمت اليها وفي يدي
صندوق البسكوت . وقلت في حنان :

— لا تنسى أن تأخذي قطعة للذكرى ..

ورفعت الى عينيها ..

ورأيت فيهما دموعا واقعة ، تعجز عن أن تنحدر ..
وقلت وأنا أبتسم لها ابتسامة كبيرة :

— لا تنسى أن تأتي لزيارتي غدا لتتفق على موعد السفر

الى لبنان ..

وبرقت عيناها من خلال دموعها ، وقالت في حزم غريب :

— نعم .. سأحضر غدا ..

وقامت تسير في خطواتها الهامسة ، كأنها تسير في نومها ..

وأغلقت الباب وراءها ..

وعدت الى مذكراتي ، وأخذت أراجع ما سجلته فيها من
كلام سامية ، ثم كتبت جملة واحدة :

توقف في نحو الشخصية ..

وهي حالة نادرة في الأمراض النفسية .. فأحيانا يحدث
للشخص في سنوات طفولته أو صباه حادث عنيف يسقط في

العقل الباطن ، ويبلغ من عنفه أن يسيطر العقل الباطن سيطرة عنيفة على العقل الواعي ، بحيث يشل نموه .. ويظل - أى العقل الواعي - يتحرك فى حدود العقل الباطن .. أى يظل العقل الواعي طفلاً .. ويكبر الشخص .. يكبر فى عمره .. ويكبر فى جسده .. ولكن دائرة نشاط عقله لا تكبر .. تظل محدودة فى نطاق العقدة التى تشكل العقل الباطن ..

وقد توقف نمو شخصية سامية منذ عادت من لبنان .. انها لا تزال تعيش فى العمر الذى عادت به من هناك .. عمر الخامسة .. أو العاشرة .. ولا يزال عقلها يدور فى هذه الأيام .. انه يدور عبر السنين ، كمجلة معلقة فى الهواء .. يدور على القاضى .. وكل ما قطعه من مسافة هو المسافة التى تصل بها الى عمر العاشرة .. وبعدها علق عقلها فى الهواء .. ما هو هذا الحادث الذى وقع لسامية فى طفولتها ، وأوقف نمو شخصيتها ..

وأجهدت نفسى فى محاولة تصور هذا الحادث .. ربطت بين كلامها ، وبين سؤالها المبهور عن عبد الوهاب ، وليلى مراد ، وهذه الحالة الهستيرية التى اتتبتها عندما سمعت صوت أم كلثوم ..

ولكنى لم أستطع أن أصل الى شىء .. انها حالة مستعصية ..

ومثل هذه الحالات قد يستغرق علاجها أكثر من مائة جلسة ، تستمر شهوراً طويلة ..

وقد كنت مقررا أن أغادر باماكو في اليوم التالي .. وقد
أستطيع أن أمد اقامتي أربعة أيام أخرى .. ولكن لا أكثر من
هذا .. فاني مرتبط بمواعيد محددة في القاهرة ..

هل تكفى أربعة أيام لعلاج سامية ؟

ثم هناك سامى ..

ربما كانت حالته أكثر استعصاء ..

ووقعت في حيرة بين مواعيدى في القاهرة ، وبين لهفتى
على اكتشاف سر هذه النفوس .. لأكتشف من خلالها سر
افريقيا !

ونظرت في ساعتى ..

ياه .. انها الواحدة بعد الظهر !

وسامى لم يأت ..

ربما لن يأتى ..

وتركت غرفتى بسرعة ، ونزلت الى قاعة الطعام ، وقد قررت
أن أبدأ بعد تناول غدائى البحث عن سامى ، ما دام سامى لم
يبحث عنى ..

وخرجت من الفندق بعد الغداء ، وقد وضعت على رأسى
القبعة الكبيرة الفلين .. قبعة الرحالة ستانلى مكتشف افريقيا ..
ونسرت في خطوات سريعة حازمة نحو بيت سامى .. واحساس

كبير علا صدري ، بأنى - أنا الآخر - فى طريقى لاكتشاف
افريقيا ..

و كنت أعرف بيت سامى بالتقريب ، رغم أنى سبق أن زرته
مرتين .. و وجدت نفسى تائها فى بعض الشوارع الجانبية .. ولم
أياس .. بل ان هذا الضياع أحسننى أكثر بأنى مكتشف .

وبعد مدة استطعت أن أصل الى بيت سامى الذى يقع فوق
الدكان الكبير .. وصلت دون أن أسأل أحدا من المارة عن
الطريق ..

ورأيته ..

رأيت سامى ..

كان واقفا داخل الدكان الكبير .. وكان لدهشتى يصرخ
فى وجه شاب زنجى ، استنتجت أنه يعمل صيا فى الدكان ..
وازدادت دهشتى ..

لقد رفع سامى كفه وبدأ يصفع الشاب الزنجى .. والشاب
ينحنى تحت وقع الصفعات ، ويصخب ببعض الألفاظ التى
لا أفهمها .. لعلها ألفاظ من لغة « الولىف » ... لغة أهالى
باماكو ..

وسامى لم يرنى ..

كنت واقفا خارج الدكان ، أرقبه من بعيد ..
واستنتجت أنه فى حالة تسيطر عليه فيها شخصية الرجل
الأبيض .. الرجل الذى يستطيع أن يقسو على الزوج ..

وتركت مكانى واتجهت الى داخل الدكان بعد أن انتهى
سامى من ضرب الشاب الزنجى وصرفه من أمامه ..
واستقبلنى سامى فى دهشة يشوبها الارتباك ..
ثم سيطر على نفسه بسرعة .. وصاح يرحب بى بلهجته
اللبنائية ..
ثم بدأ يتكلم .. يتكلم كثيرا .. والكلمات المفخمة تملأ
شديقه ..

كان يتكلم ، وكأن لا شىء حدث بالأمس ..
كأنه لا يعلم أنى عرفت بحالته ..
وتلفت داخل الدكان ، فلم أر. أخاه سليم .. وخطر لى خاطر
جديد .. وبما كانت شخصية الرجل الأبيض تسيطر عليه أكثر
عندما يغيب عنه سليم .. ربما كان وجود شخصية سليم ، تضعف
شخصية الرجل الأبيض فى سامى ..
ولكن لماذا ؟

ثم ما هى المناسبة التى تتحول فيها شخصية الرجل الأبيض
الى شخصية الرجل الأسود ..

وقلت لسامى فى لهجة عتاب :

— لماذا لم تمر على هذا الصباح .. لقد انتظرتك ..

وسكت سامى قليلا ثم قال وهو ينظر الى بوز حذائه :

— لا أدرى ..

ثم استطرد كأنه ندم على أجابته :

— كنت مشغولا فى الدكان ..

قلت وأنا أبسم له :
— هل تستطيع أن تصحبني الآن في جولة .. لقد وعدتني..
أتذكر ..

ونظر سامي في وجهي نظرة سريعة كأنه يختبرني .. ثم
ابتسم كأنه اطمأن الي ، ونادى صبي الدكان وألقى اليه
بأوامره ، ثم وضع ذراعه في ذراعي ، قائلا :
— هيا بنا .. سأصعد بك الى قمة كولوبا .

وأشار بإصبعه الى الجبل الذي يطل على مدينة باماكو ..
واستطرد قائلا :
— انه يسمى جبل كولوبا .. وفوق القمة يقع قصر الحاكم
الفرنسي ..

قلت في بساطة :
— أظن ألي في حاجة الى الذهاب الى الفندق أولا ..
لابدل ثيابي !

وهز سامي كتفيه بلا مبالاة .. وعاد يشكلم كلامه الكثير ،
وهو يسير وعيناه مركزان فوق بوز حدائه ..
ووصلنا الى الفندق ..

ودعوت سامي للصعود الى غرفتي ..
ثم اقترحت عليه أن يبق في الغرفة قليلا الى أن تتناول
قهسا من الشاي ..

وكنت في كل ذلك أحاول أن أبدا بسيطا ، طبعيا ، كاني
لا أتعهد شيئا ..

ثم قطعت كلامه الكثير ، وسألته فجأة :

— أين كنت ليلة أمس ؟

وسكت سامى ونظر الى نظرة عتاب مر ، كأنى غدرت به ،

ثم أحنى رأسه وقال كأنه يتنهد :

— كنت مريضا .. أنت تعلم أنى كنت مريضا .. لقد رأيتك

بجانبى بعد أن أفقت من اغمائي ..

قلت وأنا أحاول أن أبدو مهذبا رقيقا :

— أقصد ، أين كنت قبل أن تصاب بالاعماء ؟

قال :

— كنت فى البيت .. لقد خرجت من البيت فى الساعة

السادسة وذهبت الى حانة تسمى لأكريون .. وكنت مقررا أن

أمر عليك فى الساعة الثامنة ، كما وعدتك .. ولكن يظهر أنى

بدأت أشعر بدوار .. فعدت الى البيت .. وأصابنى الاعماء ..

وبم أفق الا بعد أن حققتنى .. نسييت أن أشكرك على اسعافى ؟

وسكت ..

وبقيت صامتا ، أتشغل بتغيير ثيابى .. ثم بعد برهة .. قال

سامى كأنه يخاطب نفسه :

— أخى سليم يقول انى كنت فى الغابة .. ولكننى لا أذكر

أنى ذهبت الى الغابة .. ان سليم يهمنى دائما بتهم غريبة ..

ونظرت اليه .. ان وجهه يسدو متعبا .. بدأ يميل الى

الاصفرار .. وبدأت أقباسه ترتبك .. كأنه يبذل مجهودا ليتذكر

شيئا ..

وحولت عيني عن وجهه .. وعلت أدعى التشاغل بتغيير
ثيابي .. وأنا ألتظر أن يستطرد في حديثه ..
ولكنه سكت ..
سكت طويلا ..

ثم فجأة بدأ يعود الى كلامه الكثير .. ولم أكن أريد هذا
الكلام .. كنت أريد أن أحصر ذهنه في نطاق حالته .. ولذلك
قاطعته مرة ثانية قائلا :

— لقد رأيت هذه الفتاة ..
وقال في دهشة :
— أى فتاة ؟
قلت :

— الفتاة الزنجية التى مرت ونحن في مقهى فاني .. لقد
رأيتها في اليوم التالي على شاطئ النيجر ..
قال :

— أنا لا أذكر فتاة مرت بنا في فاني ..
ثم ابتسم ابتسامة كبيرة وقال مداعبا :
— يظهر يا دكتور أنك معجب بالبنات الزنجيات ..
ونظرت اليه في دهشة ..
انه يبدو صادقا ..

انه فعلا ، لا يذكر هذه الفتاة .. الفتاة التى جرى وراءها
في مقهى فاني .. والتي رأيتها ترقص معه في الغابة .. والتي

ضربتني وبكت وأنا أحقنه بالمخدر .. والتي فرت من أمامي
عندما سألتها عن سامي ساعة أن التقيت بها على شاطئ النيجر..
وهو لا يذكر أيضا أنه كان في الغابة .. يرقص بين الزنوج ..
ويحرضهم على الثورة على البيض .. ويرفع عصا غليظة ويحاول
أن يعتدي بها على أخيه سليم ..

انه لا يذكر كل ذلك ..

لا يذكر شخصيته الثانية ..

هناك انفصال تام بين الشخصيتين ..

ليس هناك خيط واحد يربط إحدى الشخصيتين بالأخرى ،
ويساعد سامي على اكتشاف حالته ..

ولم أحاول أن أذكره بشيء .. ليس من واجب الطبيب أن
يذكر مريضه ، ولكنه فقط يساعده على التذكر .. ولو كنت
أصررت على أني رأيته في الغابة ، وعلى أنه على علاقة بهذه
الفتاة .. لفقدت ثقته بي .. وهرب مني .. كما يهرب من عقده ..
وكما يهرب من أخيه سليم ..

وجلست قبالة ، وتناولت قدح الشاي بين يدي في هدوء ،
وقلت في بساطة :

— انك لم تحدثني أبدا عن قصة هجرة والداك الى
افريقيا .. اني مشوق لسماع هذه القصة ..
وابتسم سامي ابتسامة اعتزاز ، وقال كأنه يتحدث عن
فخر كبير :

— لقد جاء والدي الى افريقيا منذ حوالي خمسين سنة ..

وكان من أوائل المهاجرين اللبنانيين الذين وصلوا الى باماكو ..
 وكان مهاجرا شريفا .. لم يحاول أن يحتال على الزوج .. ولم
 يحاول أن يكون عميلا للفرنسيين .. كما كان يفعل كثير من
 المهاجرين .. ولكنه تاجر بشرف .. وأحب الزوج .. واحترمه
 الفرنسيون .. وكسب كثيرا .. وكان أول من بنى في باماكو
 عمارة من ثلاثة أدوار .. بنى أربع عمارات كانت تدر عليه دخلا
 كبيرا .. لا يقل عن أربعة ملايين فرنك في العام .. ولكنه كان
 مسرفا .. كان يصرف كثيرا .. خصوصا على الأدب .. فقد كان
 أديبا كبيرا .. كان شاعرا لا يقل عن أحمد شوقي ، أو عن ايليا
 أبو ماضي .. وكان الصحفيون اللبنانيون يأتون لزيارته كل عام
 فيغدق عليهم من أمواله .. وأصدر على حسابه مجلة أدبية في
 بيروت .. واشترى مطبعة خصيصا لطبع دواوين شعره .. كانت
 أول مطبعة فصل الى باماكو .. و ..

واستطرد سامي يتحدث عن أبيه في فخر واعتزاز كبيرين ..
 أكبر من فخر واعتزاز أي ابن بأبيه ..

ثم قال :

— ومات .. وعقب موته اكتشفنا أنه أضاع كل ثروته ..
 وأن كل العقارات التي تركها مثقلة بالديون .. أن أبي لم يكن
 فاشلا .. ولكنه كان فنانا .. كان شاعرا .. فعاش كما يعيش كبار
 الشعراء .. مسرفا .. وقد مررنا بسنوات قاسية بعد موته ..
 اضطررت أنا وأخي سليم أن نشتغل لدى مهاجر آخر .. ولكن
 أخي سليم استطاع أن يبدأ في التجارة من جديد ..

ثم سكت برهة ، وانطلق كأنه يؤكد شيئا لنفسه لا لى :
 — ان سليم تاجر فلجج .. انه أكثر من يفهم فى التجارة ..
 واستطرد يتحدث عن أخيه سليم طويلا .. ثم بدأ يتحدث عن
 سامية .. ولم يتحدث عنها كثيرا .. قال عنها بلامبالاة .. انها
 مريضة .. ضعيفة ..

قلت أقاطعه :

— مريضة بماذا ؟

قال :

— لا أدري .. ولكنها دائما مريضة .. عصبية .. منذ توفي
 والدى .. لقد كانت صدمة كبيرة لنا .. ولكنها كانت صدمة
 أكبر بالنسبة لسامية .. فقد كان والدى يختصا بحبه وتدليله ..
 ثم عاد يتحدث عن والده ..

وقد استغرق حديثه منذ بدأه أكثر من ثلاثة أرباع ساعة ..
 اتهمنا خلالها من تناول الشاي .. ولم يل أبدا هذا الحديث ..
 وأنا أتبعه بكل نشاط ذهنى ، أحاول أن أكتشف من خلال
 كلماته شيئا يساعدنى على تحليل حالاته ، والوصول الى
 عقده .. ولكن لا شيء .. ان كل ما ذكره يبدو عاديا .. وهو
 يتحدث وهو ثابت الشخصية منتظم الأنفاس ، قوى الأعصاب ..
 ولم ألاحظ عليه أنه يهرب من مرحلة من مراحل حياته سواء فى
 حياة والده ، أو بعد وفاته ، بل كان حديثه مسلسلا متصلا ،
 يبدو دائما منطقيا ..

ولكننى فجأة تنبهت الى ملاحظة ..

اله لم يتحدث عن أمه ..
كل هذا الحديث الطويل ، ولم يذكر شيئاً عن أمه ..
من المستحيل أن يتحدث انسان عن تاريخ حياته ، ويذكر
كل هذه التفاصيل الدقيقة ، دون أن يذكر أمه بكلمة واحدة .
وسأله فجأة ، كآنى فرحت بهذه الملاحظة التى اكتشفتها
فى حديثه :

— وأمك .. انك لم تحدثنى عن السيدة والدتك !
وسكت سامى برهة ..
ونظر الى هذه النظرة التى يختبرنى بها .. وقطب جبينه
قليلاً .. ثم أرخى عينيه وقال فى اختصار مريب :
— ماتت ..

وسكت وبدأ ينظر الى بوز حذائه ..
وعاجلته بسؤال ثان :
— متى .. متى توفيت ؟
وشد ألقاسه من صدره كآله يشدها من بئر عميقة وقال :
— بعد وفاة والدى بشهور ..
قلت كآنى اللاحقه :

— هل كانت مع والدك عند ما جاء الى افريقيا ؟
ورفع عينيه وفيهما نظرة حادة ، وقال كآله ينهى تهمة :
— لا .. لا .. لقد تزوجها بعد أن هاجر بمدة طويلة ..
وبعد أن أصبح غنياً .. سافر الى لبنان .. وتزوجها هناك ، ثم
عاد بها ..

قلت وأنا اركز عيني فوق وجهه :
— لا بد أنها كانت سيدة عظيمة ..
وهب واقفا مرة واحدة وهو يزفر في ضيق ، وقال دون أن
يرد على :
— ألا تريد أن تذهب الى قمة كوبالا ؟
وخفت أن أفقد ثقته .. فقممت واقفا معه ، وأنا أنسحب
السحابا منظما :
— نعم .. لقد اسانا الحديث قمة الجبل ..
ولكن كانت هناك محاولة أخرى يجب أن أبذلها قبل أن
نخرج من الغرفة .. فقللت له وأنا أنظر الى رقبته كأنى لاحظت
شيئا لم ألاحظه من قبل :
— ما هذا الحدش ؟
وأشرت الى الحدش الذى يشق رقبته ، والذى سبق أن
لاحظته فى صباح الليلة التى تركنى فيها فى مقهى « فانى »
وجرى وراء الفتاة الزنجية ..
ووضع يده بسرعة فوق الحدش كأن شيئا قد لسهه فى
رقبته ، وقال وهو يتسم فى ارتباك ..
— لا أدري .. انى دائما أصاب بخدوش دون أن أدري .
ربما لأنى أتحرك دائما وأنا سارح مع خيالى .. انى شاعر كما
تعلم .. كوالدى ..
ونظرت فى عينيه ..
انه يبدو صادقا ..

وخرجت من الفندق ، وركبنا سيارة صعدت بنا الجبل ..
 وأنا فى حالة يأس .. فى يأس من أن اكتشف الشخصية الثانية
 فى سامى وأضعها أمام عينيه ، ليبرأ منها بمجرد أن يراها .. انى
 أتخيل (الشخصية الثانية) دائماً كالثعلب الذكى الذى يجيد
 الاختباء ومراوغة الصياد .. وأنا الصياد .. وهذه (الشخصية
 الثانية) التى تسيطر على سامى أشد خبثاً من كل (الشخصيات
 الثانية) التى صادفتها فى حياتى .. انها تجيد الاختباء فى العقل
 الباسن ، بحيث لا يستطيع أى عقل واعي اكتشافها .. لا عقل
 سامى ، ولا عقلى !

وقد قدرت انى يجب أن أبحث عن طريق آخر لاكتشاف
 عقدة سامى .. طريق آخر غير هذه الجلسات التى تعودت أن
 أعقدها مع مرضاى .. كان يجب أن اكتشف العقدة قبل العلاج ،
 لا من خلال العلاج .. وهذا طريق خاطئ فى علم النفس
 التطبيقي .. فان جهل الطبيب بمقدة المريض ، يساعد المريض
 أكثر على اكتشاف عقده بنفسه .. وعند ما يكتشفها بنفسه ،
 يتأكد شفاؤه منها .. ولكنى كنت مضطراً الى الالتجاء الى
 الطريق الآخر ، فأيامى فى باماكو معدودة .

— ٥ —

كانت الحطة التي وضعتها هي أن أجا الى سليم الأخ الأصغر ليروى لي تفاصيل حياة سامى وسامية .. كل تفاصيل طفولتهما .. التفاصيل الدقيقة الواهية .. فربما استطعت من خلال هذه التفاصيل أن اكتشف سرهما .. سر العقدة النفسية التي ترقد في العقل الباطن ، وتسيطر على تصرفاتهما .

وكان يجب ان اتصرف بسرعة اذا أردت أن أصل الى شئ قبل أن يحل موعد رحيلى عن باماكو .. فقررت أن أبحث عن سليم في نفس الليلة .

وقد عدت من زيارة جبل كوبالا بصحبة سامى ، في الساعة الثامنة مساء .. وألح على سامى أن نذهب الى مقهى « فالى » ، ولكنى اعتذرت بأنى متعب ، والى فى حاجة الى النوم ..

وتركته وعديت الى الفندق .. وأرسلت أحد الخدم الى سليم فى بيته ، وبمعه رسالة يسلمها اليه ، أرجوه فيها أن يأتى لمقابلتى .. حالا .. وعاد الخادم ..

وجاء وراءه سليم .. ينظر الى بعينين واسعتين ، متسائلا عن سر هذه الدعوة المفاجئة .. وصعدت به الى غرفتي ، وقلت له بصراحة ان حالة أخته سامية وأخيه سامي ، من الحالات الخطرة التي قد تؤدي الى الجنون الكامل .. وان علاجهما يعتمد على معرفة السبب الذي أدى بهما الى هذه الحالة .. والسبب لا بد أنه يرجع الى طفولتهما .. حادث وقع لكل منهما ، أو ظروف أحاطت بهما أيام الطفولة .. ثم طلبت منه أن يروي لي كل تفاصيل حياتهما ، فربما كانت فيها تفاصيل يجهلناها هما الاثنان .. تفاصيل حوادث سقطت في عقل كل منهما الباطن ، واختفت عن عقله الواعي .. فاذا عرفنا هذه التفاصيل فربما استطعت علاجهما

ولم يكن الأمر سهلا على سليم ، فهو لا يعرف التفاصيل التي يمكن أن تساعدني على علاج سامية وسامي .. فكان يستطرد في حديث طويل عن والده وعن عائلته لا يخرج عما سمعته من أخته وأخيه .. وكل الفرق انه لم يكن فخورا بأبيه كما كانا ، انه يتحدث عنه بكثير من الامتناع ويحمله مسؤولية اضاءة ثروة العائلة ..

واقضى أكثر من ثلاثة أرباع ساعة وأنا أسمع منه هذا الكلام العادي ، الى أن قال وهو يتحدث عن أخته سامية :

— لقد كان أبي يدلها الى حد أنه أقنمها بأن لها صوتا يمكن أن تغني به .. و ..

وقاطعت في فرح كأنني عثرت على أميتي :



- هل تقول انه كان لها صوت جميل .. ؟
قال وهو ينظر الى دهشبا :
- أبى كان يعتقد ذلك .. بل انه كان يدعو لها مطربا من
بيروت يقيم معنا ثلاثة أو أربعة أشهر كل عام .. يقيم على
حسابنا ، ويقبض أجرا كبيرا .. ليدرب سامية على الغناء .
قلت فى لهفة :
- وهل كانت تغنى ؟
قال :
- طول النهار كانت تغنى .. لم تكن تتوقف عن الغناء
الا عندما تمام ..
ثم لوى شفتيه ، وقال :
- صوتها فطيع ..
قلت :
- أقصد هل كانت تغنى فى حفلات عامة ؟
قال كأنه يعاتبنى :
- لا طبعاً .. لا أحد يستطيع أن يطبق غناءها .. و ..
وسكت برهة ، ثم قال ، كأنه تذكر شيئا :
- نعم .. لقد غنت فى حفلات عامة .. عندما كنا فى لبنان
كان أبى يدعوها الى الغناء فى الحفلات التى تقام لتكريمه ..
قلت بسرعة :
- وهل كانوا يصفقون لها ..
قال :

— طبعا .. انهم كلهم مناققون .. كلهم كانوا ييتزون
أموال أبي .. ان هذه الحفلات كانت تقام خصيصا لابتزاز
أمواله .. وطبعا .. اذا غنت ابنته ، فيجب أن يصفقوا لها ..
للصوص .. لقد سرقوا أموال أبي !
قلت :

— وهل كانوا ينشرون صورتها في المجلات اللبنانية ..
قال :

— طبعا .. وكانوا يسمونها أحيانا مطربة افريقيا .. وأحيانا
مطربة المهجر .. وأحيانا المطربة الصغيرة .. بل ان أحد المتأففين
ممن يكتبون في هذه المجلات ، قارن بين صوتها وصوت
أم كلثوم .. تصور .. وطبعا كان أبي يدفع .. يدفع بسخاء ..
يجنون !

قلت :

— كم كان عمرها ..
قال :

— عشر سنوات ..
قلت :

— وهل لا تزال تغنى ؟
قال وهو ينظر الى في دهشة :
— لا ..

قلت :

— لماذا ؟

قال :

— لأنى منعته من الغناء ، بعد موت والدى !
قلت وأنا أسجل فى مذكراتى الطيبة ، ما يدور بيننا من
حديث :

— لماذا منعته من الغناء ؟

قال فى حدة كأنه تضايق من أسئلتى :

— لأنها لم تحس بالمصيبة التى حلت بنا .. لم تستطع أن
تقدر أننا أفلسنا .. ظلت تعيش نفس الحياة التى كانت تحياها
أيام والدى .. تقضى يومها كله فى الغناء ، وسماع اسطوانات
أم كلثوم وعبد الوهاب .. ولا تعمل شيئا آخر .. لا تريد أن
تشتغل فى البيت .. لا تريد أن تدخل المطبخ .. فمنعته عن الغناء
.. كنا فى حاجة اليها لتعمل معنا .. لتبحث معنا عن لقمة العيش ..
لتوفر علينا على الأقل أجر الخادم .

وجذب نفسا عميقا من صدره ، ثم استطرد فى حدة ،
ولهجته اللبناية تكاد تشق جدار الغرفة :

— تصور .. لقد ضببتها يوما تبيع بعض أثاث البيت ..
أتدري لماذا .. لتأخذ ثمنها وتحوله الى ييروت ثمننا لبعض المجلات
الفنية التى تصدر هناك .

قلت :

— وماذا فعلت ؟

قال :

— ضربتها ..

٤

قلت :

— وكيف أفنعتها بالكف عن الغناء ؟

قال في حدة :

— بالضرب .. كنت أضربها كل يوم .. وفي مرة شججت رأسها .. وفي مرة أخرى شققت شفتها .. لقد كنت أضربها بقسوة ، وكان هذا لصالحها ، وصالح العائلة التي وجدت نفسها فجأة ، لا تملك ثمن رغيف عيش ..
قلت ، دون أن أعلق على كلامه :

— لقد لاحظت أنها بكّت واتبّتها حالة هستيرية عند ما سمعت أسطوانة أم كلثوم .. فهل تصيها هذه الحالة دائماً ؟
قال :

— نعم .. كلما سمعت أم كلثوم ..
قلت :

— منذ متى ؟

قال :

— بعد سنوات طويلة من موت أبي .. كنت قد جمعت كل الأسطوانات التي يحتفظ بها أبي ، وكل المجلات والجرائد العربية ، وكل دواوين الشعر .. جمعت كل ذلك ووضعت في دولاب واحتفظت بالمفتاح في جيبي .. حتى لا أشغل أحدا من العائلة عن السعى الى لقمة العيش .. عن معاوتى في العمل .. كنت أريد أن أشعرهم بأننا بدأ الحياة من جديد .. اننا بمثابة مهاجرين جدد .. والمهاجر الجديد لا يضيق وقته في سماع

الأسطوانات ، وقراءة المجلات ، وكتابة الشعر .. الشعر ..
الشعر .. يخرب بيته ها الشعر .. على صرمايتى ها الشعر .
وضغط على أسنانه حتى برزت عظام فكيه من تحت جلد
وجهه .. ثم تنهد ، كأنه ينفث النار في وجه كل الشعراء ،
واستطرد قائلاً :

— وبعد سنوات .. سنوات طويلة ، خلت خلالها أن
سامية قد نسيت الغناء .. خطر لى يوما أن افتح الدولاب
وأسمع أم كلثوم .. وما كدت أضع الأسطوانة فوق القونفراف
حتى لمحت سامية ترتعش .. ثم عند ما انطلق صوت أم كلثوم ،
بدأت سامية تبكى .. ثم صرخت .. وقامت تجرى ، وهى فى
حالة هستيرية ..

قلت :

— وماذا فعلت ؟

قال :

— لا شيء .. كنت أعلم أن سامية مجنونة .. وقد أدت
أسطوانة أم كلثوم عند ما جئت لزيارتنا ، لأريك جنونها .. و ..
ولكن لماذا تسأل كل هذه الأسئلة ؟

ورفعت رأسى اليه ، وقلت وأنا ابتسم ابتسامة كبيرة :

— هذه عقدة سامية ..

قال وهو يرفع حاجبيه فى دهشة :

— ماذا تقصد ؟

قلت فى هدوء :

— هذا هو سر حالتها الشاذة .. ان أختك قضت طفولتها
 في حلم كبير .. حلم سيطر على كل دقيقة من عمرها .. كانت
 تحلم بأن تكون يوما مطربة كبيرة كأم كلثوم أو ليلي مراد ..
 وأن تخرج من باماكو ، هذه المدينة الصغيرة المجهولة ، لتعيش
 في بيروت أو في القاهرة .. وتغنى .. ويصفق لها الناس .. وتنتشر
 الصحف صورتها .. وقد جعل والدك من هذا الحلم حقيقة
 عاشت فيها سامية فعلا .. غنت أمام الناس .. وسمعت تصفيقهم
 .. ورأت صورتها في الصحف .. ثم جئت أنت لتنتزعها
 من هذه الحقيقة .. تنتزعها من الحياة .. ولا شك
 أنها حاولت أن تقاومك .. ولكن لا شيء كان يساعدها على
 المقاومة .. ان أباه الذي كان يحول أحلامها الى حقائق ،
 مات .. وباماكو ليس فيها جمهور تغنى له .. وليس فيها
 صحف تنشر صورتها .. وكانت تقاوم اليأس .. الذي يصور
 لها أنها ستقضى كل حياتها في هذه المدينة .. بلا مجد .. انसानة
 مجهولة .. مهملة .. لا يصلها بعالمها شيء .. ولا يصلها بأصلها
 الممتد الى بيروت ، شيء .. ثم بدأت تضربها .. وقسوت عليها
 في الضرب .. فبدأت تخاف .. كانت تخافك أنت أولا .. ثم
 أصبحت تخاف أحلامها .. هذه الأحلام التي تتصورها على أنها
 حقيقة تعيش فيها .. وضغط الخوف على الأحلام ، فأسقطها في
 العقل الباطن .. ولكن الحلم عند ما سقط في العقل الباطن ،
 سقط على أنه حقيقة .. حقيقة حياتها .. ولم يجد عقلها الواعي
 حقيقة أخرى يعيش فيها .. فاستسلم للعقل الباطن .. أصبح

يعيش في نفس هذه الحقيقة الوهمية .. ولكنه — أى العقل
الواعى — لا يستطيع أن يجاهر بهذه الحقيقة ، لأنه يخاف منك
.. يخاف من الضرب .. فكانت النتيجة أن شل .. أصبح أسيرا
لوقعة معينة راقدة في العقل الباطن .. لم يكبر بعد ذلك .. لم
يتقدم به العمر .. انه لا يزال يعيش في عمر العاشرة عند ما
وقفت سامية تغنى أمام الجمهور في بيروت .. ولكنه — كما
قلت لك — لا يستطيع أن يواجه هذه الحقيقة .. فتجاهلها ..
يعيش في كل ما حولها ، الا لحظة ان وقفت سامية لتغنى أمام
الناس .. هذه اللحظة يتجاهلها العقل الواعى ، لأنه خائف ..
خائف منك .. لذلك فعند ما تتحدث سامية عن الأيام التي
قضتها في بيروت تذكر كل شيء ، الا ما يتعلق بحلمها الكبير ..
انها لا تذكر أنها وقفت أمام الناس وغنت .. ولا تذكر أنهم
صفقوا لها ، ولا تذكر أن الجرائد نشرت صورتها .. لا تذكر
شيئا من ذلك .. لأن الخوف من ضربك وقسوتك .. جعل عقلها
يهرب من بقايا حلمها ..

وقال سليم وكأنه لم يفهم شيئا مما قلت :
— ولكن لماذا تبكى وتنهار عندما تسمع صوت أم كلثوم ؟
قلت في بساطة :

— لأن صوت أم كلثوم عند ما يأتينا من الخارج ، لا من
داخلها .. داخل أحاسيسها .. يثير المعركة من جديد بين عقلها
الواعى وعقلها الباطن .. يحاول عقلها الواعى أن يتحرر من عقلها
الباطن ، ويجرى وراء صوت أم كلثوم ، لأنه حقيقة ليست

وهمية .. حقيقة تنبعث من أسطوانة .. ولكن سامية لا تحتمل
هذه المعركة .. انها أضعف منها .. فتنهار ا .

وقال سليم في حنان عجيب ، وواضح أنه لم يفهم كل
ما قلته :

— هل كل ذلك لأنى كنت أقسو عليها بالضرب .. انى
مستعد أن اعتذر لها .. أن أكفر عن سيئاتى .. أن أدلها .. أن
أعطيها كل ما تريد ا ..

قلت :

— هذا لا يكفى .. أتدرى ماذا يحدث الآن لو تحررت من
الخوف منك ؟

قال :

— ماذا ؟

قلت :

— سيفصح عقلها الباطن عن نفسه عن طريق عقلها الواعى ..
وأغلب الظن أنها فى هذه الحالة ستتصور نفسها أم كلثوم ..
وتأخذ فى الغناء فى كل مكان .. فى الشارع .. فى البيت .. وكلما
وجدت أمامها مجموعة من الناس .. تغنى على أنها أم كلثوم ..
وتبتعد أن الناس يعتبرونها فعلا .. أم كلثوم ..

قال والدموع فى عينيه :

— ماذا تفعل .. كيف نعالجها .. كيف نشفيها ..

قلت :

— لا أعرف بعد .. ولكننا لن نستطيع أن نشفينا إلا اذا
ساعدتنا هي على شفاء نفسها .
ونكس سليم رأسه ، وتنهض في يأس .. ثم قام واقفا وأتقاسه .
تن كانه قد شاخ ، وقال في صوت يائس :
— أظن يجب أن أعود الى البيت ..
قلت في رجاء :
— امكث قليلا .. بقي أماننا سامى .. لم نحل عقده بعد !
قال في اعياء :
— الساعة الواحدة صباحا .. وأنا متعب !
قلت :
— تحمل .. من أجل سامى .. سأتى اليك بفنجال شاي ..
وعاد سليم وجلس في مقعده صامتا .. وخرجت من الغرفة
أبحث عن خادم ، يأتى لنا بالشاي .. ثم عدت ، وقدمت الى
سليم صندوق البسكويٲ الذى أحتفظ به دائما ، وقلت :
— بسكوت من مصر !
ومد سليم يده في تكاسل ، دون أن يبدو عليه الفرح عندما
سمع اسم « مصر » كما يحدث دائما لأخته وأخيه .. والتقط
قطعة بسكوت وضعها بين أسنانه ، وهو يقول :
— لقد قلت لك كل شيء عن سامى .
قلت :
— لا .. ليس كل شيء .. لابد أن هناك تفاصيل أخرى
فاتك أن تذكرها ..

وسكت سليم ، يحاول أن يتذكر ..
وفاجأته بسؤال أحاول أن أعينه به على التذكر :
— كيف كانت والدتك تعامل سامى ..
ورفع الى رأسه فى دهشة ، كأنه يسألنى عن سر هذا
السؤال ، ثم أرخى عينيه ، وقال فى فتور :
— كما كانت تعاملنا ..
وقضم قطعة بسكوت ، ثم عاد ورفع رأسه ونظر الى بكل
عينيه ، وقال كأنه يتهمنى :
— هل قال لك سامى شيئا بخصوص والدتنا .
قلت وأنا أبتمس كانى أرشوه بإبتسامتى :
— لا .. لقد حدثنى عن كل شيء الا عن والدته .. لذلك
سألتك !
وعاد سليم ونكس رأسه ، وسكت مدة طويلة .. تشاغل
خلالها بأكل البسكوت ، ثم قال :
— ربما كانت تقسو عليه أكثر منا .. ولكنها لم تكن أما
قاسية .. كانت خير السيدات .. سيدة عظيمة حقا .. لو أن أبى
ترك لها ادارة أعماله لما أفلسنا .. وقد كانت تعرف أننا سنفلس
.. كانت دائما تحذر أبى من اسرافه وجنونه ..
ولاحظت الفرق الكبير بين اللهجة التى يتحدث بها سليم
عن والدته ، واللهجة التى تحدث بها سامى عنها ..
ان سليم معجب بأمه ، ويحترق أباه ..
وسامى معجب بأبيه ، ويحترق أمه ..

ودونت هذه الملاحظة في مذكراتي الطيبة ووضعت تحتها
خطين ..

وعدت أسأل سليم :
— ولكن لماذا كانت تقسو عليه ؟
واقهر سليم كأنه يدافع عن أمه :
— لأنه كان مشاكسا .. كان مجنونا .. كان يتعدها دائما ..
وكان يقضى وقته يلعب مع الأطفال الزوج في الشارع .. في
التراب .. كانت أمي تحاول أن تجعل منه انسانا متمدينا ..
كانت تصنع له الثياب الأنيقة بيديها .. ولكنه كان يذهب
بالثياب الأنيقة ليلعب مع الأطفال الزوج في التراب ..
قلت وقد أحسست أني بدأت أسك بطرف الحيط :
— هل كان يلعب مع الأطفال الزوج ؟ .. حدثني عن
هذه الفترة !

وأمال سليم رأسه الى الوراء ، وضغط بأصابعه على
جبينه ، يحاول أن يتذكر ، ثم قال :
— لقد كان قاسيا في لعبه معهم .. كان يضربهم .. بل انه
لمن مرة أخذ الأطفال في ذراعه بخنجر كان يلعب به .. ورغم
ذلك كان الأطفال الزوج يحبونه .. ويتتفرونه .. وكان يسرق
من البيت قطع الشيكولاتة والحلوى ، ويحملها اليهم ، وبعد أن
يوزعها عليهم ، يبدأ في اللعب معهم .. ويتطور في لعبه الى حد
القسوة ..
وسكت سليم ..

ولاحقته بسؤال آخر :

— ماذا كان موقف الزوج الكبار منه .. ماذا كانوا يفعلون وهم يرونه يضرب أولادهم ، ويقسو عليهم ؟
قال :

— انهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا .. سامى أبيض .. ابن سيد .. ولا يستطيع زنجى أن يمسه و ..
وسكت سليم قليلا كأنه تذكر شيئا جديدا ، وقال فى صوت هائم كأنه يحدث نفسه :

— كانت هناك امرأة .. امرأة زنجية متوسطة العمر .. رأيتها كثيرا تأتى الى المكان الذى يلعب فيه سامى .. وكانت تناديه ، فيذهب اليها ، ويجلس بجانبها على الأرض .. وكانت تعطيه بعض الهدايا الصغيرة .. لعبا وعرائس من التى يلعب بها الأطفال الزوج .. ثم تحدث اليه .. تتحدث اليه طويلا ، وهو هادىء بجانبها على غير عادته .. وقد سألته عنها مرة فقال بلا اهتمام انه لا يعرفها .. وانها تروى له قصصا جميلة من أساطير الزوج .. وكان سامى يردد دائما أسطورة سوتدياتا مؤسس مملكة مالى .. أسطورة خرافية تروى كيف استطاع طفل كسيح أن ينتصر على وحوش الغابة .. وعلى أعداء قبيلته .. وأن يضم كل القبائل ويؤسس مملكة حاربت الفرنسيين ستين عاما ..

وتنهذ سليم وقال فى صوت غريب :

— كانت امرأة غريبة ..

قلت فى لهفة :

— وهل عرف والداك خبر هذه المرأة ؟

قال سليم :

— لقد قلت له يوما عنها .. كنت قد تشاجرت مع سامى ،
وظننت أنى لو أبلغت والدى بقصة هذه المرأة ، فسيضربه ..
سيضرب سامى ..

قلت :

— وماذا فعل ؟

قال :

— اهتم أول الأمر .. وأرسل أحد موظفيه ليتحرى خبر
هذه المرأة ..

قلت واللهفة تشتد بى :

— ثم ..

قال :

— ثم لا شئ .. قال لى والدى بعدها بأيام ان هذه المرأة
كانت تعمل خادمة عندنا .. وكانت بمثابة خادمة خاصة لسامى ..
ثم طردت .. وأنها لذلك تحب سامى ، وتحب أن تراه ..
قلت :

— وماذا قالت والدتك ؟

قال فى بساطة ، وهو لا يدرى ما أسعى الى معرفته :

— نقص الكلام ..

قلت :

— ألم تلاحظ شيئا بعد ذلك ؟

قال وهو يحاول أن يتذكر :

— لم ألاحظ شيئا ، الا أن هذه المرأة الزنجية لم تعد تظهر في المكان الذى يلعب فيه سامى .. ربما خافت من الموظف الذى أرسله لها والدى ..

وسكت سليم ..

وبقيت برهة أفكر فى أن أواجهه بالحقيقة التى اكتشفتها من حديثه .. ولكنى ترددت .. فلم أكن واقفا أن ما اكتشفته هو الحقيقة .. كنت لا زلت فى حاجة الى بعض الأسئلة الأخرى ، قبل أن أثق فى اكتشافى ..

وعدت أسأله :

— كم سنة قضاها والدك فى افريقيا قبل أن يتزوج والدتك ؟

ونظر الى سليم فى دهشة ، كأنه لا يفهم جدوى هذا السؤال ، ثم هز رأسه فى استسلام ، وأجاب :

— أكثر من عشر سنوات ..

قلت بسرعة :

— هل كان والدك ناصح البياض .. أم كان لونه يميل الى

السمرة ؟

واشتدت الدهشة فى عيني سليم ، وقال فى حدة :

— لماذا .. لماذا هذا السؤال ؟

قلت فى هدوء :

— أرجوك .. أجبني !

قال وهو ينظر في وجهي بكل عينيه ، كأنه في حالة تحفز :
— كان أبيض .. ناصع البياض .. في لوني .. ولكن لماذا

تسأل ؟

قلت وأنا أبسم كأني أمسح على أعصابه :
— لأنني لاحظت أن سامي يختلف في لونه عنك ، وعن
سامية .. انه أسمر !

وهب سليم واقفا ، وصرخ في وجهي وعيناه غاضبتان :
— فهمت الآن ما تفكر فيه .. وأؤكد لك أنه خطأ .. خطأ
مائة في المائة .. لقد كانت هناك اشاعة سمعتها وأنا صغير تقول
ان والدي تزوج من إحدى الزوجيات .. ولكنها كانت اشاعة
كاذبة .. ماتت في حينها ..
قلت في هدوء :

— هل أنت متأكد أنها كانت اشاعة ؟
قال :

— متأكد .. وواثق .. ومؤمن .. ان هذه الاشاعة تطلق
على كل مهاجر أعزب يأتي الى افريقيا .. والمهاجرون العزاب قد
يختلطون بالزوجيات ، ولكنهم لا يتزوجون منهم .. ولن أسمع
لأحد بأن يلطخ سمعة والدي بعد أن مات ..
قلت في هدوء وحزم :

— أنا لا أسمى لتلطخ سمعة والدك .. أنا غريب .. ولن

ترانى هنا بعد أيام .. وكل ما يهمنى هو أن أعرف الأسباب التى أدت الى حالة سامى حتى أستطيع علاجه ..
ونظر الى سليم فى تردد ، ثم بدأ يهدأ ، وعاد يجلس فى مقعده وهو يتنهد ويزفر أنفاسه فى ضيق ..
وقال وهو يحاول أن يبدو هادئا :

— صدقنى يا دكتور .. ان ما خطر ببالك بعيد عن الحقيقة .. وسامى أخى من أبى وأمى .. لقد كانت أمى تقسو عليه لمصلحته لا لأنه ليس ابنها .. ولكنه عندما كان يمرض كانت تجن عليه .. وكانت تنام معه فى فراشه .. وتعالجه بنفسها .. ولا تتركه الا بعد أن يشفى .. مستحيل أن تفعل امرأة كل ذلك لطفل ليس ابنها .. وأنا .. أنا لم أشك يوما فى أن سامى أخى .. شقيقى .. من أبى وأمى .. كان يجب أن أعرف ، ولو بلحساسى ، اذا لم يكن شقيقى ..

وكان سليم يتحدث بصدق وحرارة .. وبدأ إيمانى بحقيقة اكتشافى يتزعزع من جديد .. وكان يجب أن أتأكد قبل أن أخطو خطوة واحدة فى علاج سامى .. لو خطوط خطوة واحدة على أساس استنتاج خاطئ ، فلن أصل الى شيء ، ربما أسأت الى سامى ، وقتلته الى حالة أخطر مما هو فيها ..

ومضت فترة طويلة وأنا أفكر وأدخن سيجارة ، وسليم يحلق فى شفتى كاله فى انتظار حكم البراءة .. براءة والده .. أو الاعدام !

وفجأة خطر لى خاطر جديد ..

وقلت وأنا أكثر لهفة :

— هل تذكر الفتاة الزنجية التي كانت ترقص مع سامي ،
عندما شاهدناه في الغابة ..

وعقد سليم ما بين حاجبيه ، ثم انطلق بعد أن تذكر :
— ييندا ..

قلت :

— أهذا اسمها ؟

قال :

— نعم .. ييندا .. انها ابنة الكاباكا .. ابنته الثانية ..
قلت في فضول :

— من هو الكاباكا ؟
قال :

— انه زعيم القبيلة .. الزعيم عندهم يسمى كاباكا ..
قلت :

— هل تذكر هذه المرأة الزنجية ، التي كانت تروى لسامي
في طفولته أساطير الزنوج .. أقصد ، هل تذكر وجهها ..
شبهها ..

وعقد سامي حاجبيه ، ثم قال بعد برهة :
— نعم .. أذكرها ..
قلت :

— هل تعتقد أن هناك شبها بين هذه المرأة ، وبيندا ابنة
الكاباكا .. أي شبه ولو بسيط !

واحتارت النظرات في عيني سليم ، ومضت فترة طويلة ،
وهو متردد ، كأنه يضع الوجهين ، وجه بيندا ووجه المرأة
الأخرى ، بجانب بعضهما ، في خياله .. ثم قال في دهشة كبيرة :
— نعم .. هناك شبه .. شبه كبير .. كيف عرفت ؟

قلت ، وأنا أبتسم :

— لم أعرف .. ولكنني استنتجت !

وظل مبهلًا بعيني في وجهي ، برهة .. ثم لكس رأسه في
استسلام ، كأنه أحس بأن حبل الحقيقة بدأ يلتف حول عنقه ..
واستطردت قائلاً :

— أريد أن أقابل بيندا ..

ورفع رأسه في ذعر ، وقال :

— لماذا ؟

قلت في حزم :

— لا بد أن أقابلها .. من أجل سامي !

ولكس رأسه وهو يهزها موافقا ..

قلت :

— وأريد أن أقابل الكاباكا ..

وهز سليم رأسه موافقا ، دون أن يتكلم .. ونهض من على
مقعده في ببطء .. كأنه يئن .. كأنه شاخ .. وقال في صوت
يائس :

— غدا سأمر عليك الساعة الثامنة لنذهب الى الغابة ..

قلت وأنا أنظر في ساعتى :

— الساعة الآن الثالثة صباحا .. مر على في الساعة
العاشرة .. انى في حاجة الى النوم ، حتى أستطيع أن أعمل ..
وغدا يوم عمل شاق ..
وهز رأسه موافقا ، دون أن يتكلم ..
وودعته حتى باب غرفتى وأنا أبتمس له مشجعا ..

ونمت ليلتها وخیالى يواجه أضخم عقدة نفسية فى إفريقيا ..
عقدة الأبيض ، والأسود ..

- ٦ -

جاء سليم الى غرفتي بالفندق في الساعة العاشرة تماما ..
 كأنه قضى الليل كله واقفا على بابي ، الى أن دقت الساعة
 العاشرة ، فدق الباب .. وكان واضحا أنه لم ينام .. وجهه
 باهت .. وبصمات الأرق تحت عينيه .. ولم يتكلم .. حياني
 تحية الصباح بتمتعة لم أتبين كلماتها .. ثم جلس صامتا ورأسه
 ملقى فوق صدره ، ينتظرني الى أن أتهى من ارتداء ثيابي ..
 وكنت أعلم سر العذاب المرتسم على وجهه .. ان المشكلة
 بالنسبة له لم تعد مشكلة سامي ، بل مشكلة أيه .. هل تزوج
 أبوه من امرأة زنجية كما استتجت .. وهل سامي من أم زنجية ؟
 والمشكلة كبيرة بالنسبة له .. مشكلة تمس سمعة أيه ،
 وكرامة العائلة كلها .. فالبيض الذين يتزوجون من زنجيات ،
 لهم وضع خاص في المجتمع الافريقي .. وضع يشين الكرامة ..
 ولم أحاول أن أخفف عن سليم .. فقد كنت أعلم أيضا أن
 الحل الوحيد هو أن يكتشف معنى الحقيقة ..

ووضعت على رأسي القبعة القلبن الكبيرة .. قبعة الرحالة
 ستانلي يكتشف افريقيا .. ثم وضعت ذراعي في ذراع سليم

وأنا أبتسم له مشجعا .. وخرجنا من الفندق ، وركبنا سيارته
في طريقنا الى الغابة للبحث عن ييندا ابنة الكاباكا .. زعيم
القبيلة ..

ان الغابة في النهار أكثر صمًا ، كأن طيورها ووحوشها
لا تصحو الا في الليل .. حتى الأهالي الذين أراهم على جانبي
الطريق يبدون نياما .. يسرون في خطوات زاحفة صامتة ،
بعكس ما رأيتهم يرقصون في الليل .. كأنهم يخافون النهار ..
ولم أخف الغابة في النهار .. ولكنني شعرت بالرهبة المثيرة ..
ان فيها شيئًا قويًا يجذبك اليها .. شيئًا يكاد يقتلني من داخل
السيارة ، لأسير على قدمي بين أشجارها .. أسير الى بعيد ..
الى بعيد جدا .. لأصل في النهاية الى سر مجهول .. انه نفس
الشعور الذي تحس به عندما تبطلق في مياه البحر فتجس أنك
تريد أن تلقى نفسك فيها .. ونفس الشعور الذي يجذبك عندما
تمد بصرك الى أفق الصحراء فتحس أنك تريد أن تتوغل فيها
حتى تصل الى الأفق .. ان للأرض قوة جاذبية نفسية ، لا تقل
عن قوة جاذبيتها المادية ..

وسليم يقود السيارة صامتًا .. وأنا ألتفت الى كل شجرة
أمر بها كأنني سأجد خلفها أسدا أو فيلا أو على الأقل قردا ..
ثم أياأس من الالتفات خلف الأشجار .. فأعتدل في جلستي
وأحاول أن أركز ذهني في حالة سامية ، وسامي ..
لقد اكتشفت عقدة سامية .. وربما كانت هذه العقدة هي
عقدة كل بنات المهاجرين في افريقيا .. هذه الفتاة البيضاء التي



تجد نفسها في مجتمع ضيق ، متأخر ، يضيق عن أحلامها ، وعن ثقافتها .. فتعيش كل يوم وهي تفكر في العالم البعيد .. العالم الواسع .. العالم الأبيض .. وتحاول دائما أن تنقل مظاهر هذا العالم الى عالمها الضيق .. فتقتبس منه آخر الأزياء ، وآخر الأغاني ، وآخر الرقصات .. وتحرص على أن تتبع أخباره .. انها تعرف عن تايرون باور أكثر مما يعرف بنات باريس ، وأكثر مما يعرف بنات القاهرة .. وكل ذلك لا يحل عقدتهن ، بل يزيدهن احساسا بها ..

ولكن عقدة سامية كانت أكبر من ذلك نتيجة للظروف التي أحاطت بها ، حتى سببت لها توقف نمو شخصيتها ، وتركها تعيش في سن العاشرة ، بعد أن تعدت العشرين .
.. المهم ..

كيف أستطيع تخلص سامية من حالتها في خلال أربعة أيام ، هي كل ما بقيت لي قبل أن أغادر باماكو ؟
هذا ما لم أعرفه بعد ..
وسامى ..

ان سر عقده - على الأرجح - أنه ولد من أب أبيض وأم سوداء .. وكل ابن يولد من أب أبيض وأم زنجية ، هو ابن معقد .. وسر عقده لا يرجع الى سبب فسيولوجي .. ليس لأن اختلاط الدم الأسود بالدم الأبيض يسبب مرضا عضويا يتج عنه عقدة .. لا .. ولكن لأن المجتمع فرض على هؤلاء الملونين معاملة خاصة تعقد نفوسهم .. ولأن اختلاف مجتمع الأب عن

مجتمع الأم ، اختلافا كبيرا يسبب تصارعا في نفسية الابن بين مجتمعين .. وينتهى التصارع بعقدة ..

وهؤلاء الأبناء يسمون في افريقيا « ماتيس » .. وتسمع لفظ « ماتيس » من أفواه الافريقيين ، ومن أفواه البيض ، يشوبه رقة احتقار وازدراء ..

والماتيس يكونون مجتمعا خاصا في افريقيا .. ليس مجتمعا زنجيا ، وليس مجتمعا أبيض .. انما هو مجتمع «وسط» .. وأفراده يقفون دائما في « الوسط » .. جمالهم وسط .. ليس جمال الزوج ، ولا جمال البيض .. ذكاؤهم وسط .. ليس ذكاء الزوج ولا ذكاء البيض .. وعواطفهم وسط .. لا يستطيعون أن يتحمسوا للبيض ، ولا أن يتحمسوا للزوج .. وتقاليدهم وسط .. خليط من تقاليد البيض وتقاليد الزوج .. وحتى لهجتهم وسط .. خليط من لهجة الزوج والبيض .. وديانتهم وسط .. انهم يؤمنون بالمسيح أو بمحمد باحساس وثني .. ويؤمنون بالوثنية باحساس مسيحي أو اسلامي .. وثقافتهم وسط .. ليسوا مثقفين ولا غير مثقفين .. و ..

وهذا « الوسط » لم يختره هؤلاء الأبناء .. انه ليس موقفا يقفون فيه باختيارهم .. ولكنه مفروض عليهم .. فرضه عليهم تصارع مجتمعين مختلفين .. صراع بين مجتمع البيض ومجتمع السود ، يدور من حولهم ، ويدور أيضا داخل نفوسهم .. وينتهى بهم الى هذا الموقف الوسط .. انه موقف أشبه بالسجن لا يستطيعون الفرار منه .. لا يستطيعون أن يندمجوا بكيانهم

وعواطفهم داخل مجتمع البيض ، ولا داخل مجتمع السود ..
والبيض ينظرون اليهم من خلال قضبان السجن بازدياء ولا
يتقون فيهم لأنهم ليسوا منهم .. والزواج أيضا ينظرون اليهم
في شك ورية لأنهم ليسوا منهم .. والجميع يقلبون شفاههم في
تأفف ويهمسون .. ماتيس !

والماتيس ليسوا في افرقيا وحدها .. انهم في كل بلد
مستعمر ، وفي كثير من البلاد التي لم تستعمر واختلطت فيها
الألوان .. في الهند .. في اليابان .. في أمريكا .. وأيضا في
بعض البلاد العربية ، ففي المملكة السعودية يوجد هذا الوضع
الاجتماعي بين القبائل الأصلية التي نبتت في أرض الجزيرة ،
وبين القبائل والطوائف الدخيلة المستوطنة .. ويسمون هناك
« بنى خيضر » .

ولكن ..

حالة سامي تختلف عن حالة أي فرد آخر في مجتمع الماتيس ،
لأنه لا يدري أنه ماتيس .. لا يدري بعقله الواعي ، ولكن عقله
الباطن يدري .. وكانت النتيجة أن أصبحت له شخصيتان ..
يتغلب العقل الواعي فتسيطر على سامي شخصية الرجل الأبيض
.. ويتغلب العقل الباطن فتسيطر عليه شخصية الرجل الأسود ..
فاذا افترضنا أن هذه الحالة صحيحة ، فكيف أستطيع أن
أعالجه في هذه الفترة القصيرة التي سأقضيها في باماكو ؟
حتى هذه اللحظة ، لم أكن قد وصلت الى طريقة العلاج ..
وكان كل ما يهمني هو أن أكتشف المؤثر الذي تسيطر به احدى

الشخصيتين على الأخرى .. أن أكتشف المحرك الذى يحرك الشخصية الزنجية لتسيطر على تصرفات سامى .. متى يحدث هذا .. وفى أى مناسبة؟! وكنت أعتقد أنى لن أكتشف هذا المؤثر أو المحرك ، الا بعد أن أقابل بيندا والكاباكا ..

وأوقف سليم السيارة على جانب الطريق .. وشد نفسا عميقا حزينا من صدره ، ثم نزل ودعانى الى النزول ، وسار بجانبى صامتا ورأسه ملقى فوق صدره ..

ومشينا بين أشجار الغابة ، ونحن نطأ بأقدامنا الأوراق الجافة المتساقطة على الأرض ، فتكسر ، وينطلق من تحت خطواتنا صوت خشن كآله صوت أنين أجش ..

ووصلنا الى القرية ..

نفس القرية التى زرتها بالليل ورأيت سامى يرقص فيها رقصة الزوج .. ولكنها تبدو فى النهار كأنها خرابة .. صامتة .. فقيرة .. أكوأخا كالحة .. والرائحة الزاغة التى شممتها فى كل مكان من افريقيا ، تهب على قوية عيفة .. رائحة أشبه برائحة السمك المجفف ، وفيها شئ مثير ، يثير أعصابك ، ويعيطك باحساس من الغموض ، والترقب والحذر ..

وبعض النساء جالسات أمام أكوأخهن يقمن ببعض الأعمال اليدوية ، فى تراخ .. ورجال مستلقون على الأرض أنصاف عرايا .. نيام أو أشبه بالنيام .. والشمس تصب كل نارها ونورها على الساحة الفسيحة التى تتوسط الأكوأخ فتبدو

الأرض من تحتها ناصعة الضوء كمرآة تزلزل عينيك ، وفجئاً
 اللهب .. لهب الشمس .. ينطلق منها ، حتى تكاد تحص بأبخرته .
 وأحكمت وضع قبعتي الكبيرة فوق رأسي ، ومشيت بجانب
 سليم نحو كوخ كبير نسبياً يتوسط بقية الأكواخ .. ولحنا
 بعض الأهالي ، فلم يتحركوا من مكانهم .. ولا تكلموا ..
 ولكني لاحظت عيونهم البيضاء تنصب على سليم وفي نظراتهم
 حقد وكراهية ..

وتقدم سليم من رجل جالس القرفصاء مستنداً يظهره على
 جدار الكوخ الكبير ، وقال بلهجة أمرة ، وباللغة الفرنسية :
 - أريد أن أرى الكاباكا ..

ولم يتحرك الرجل من مكانه .. ولم يتكلم .. أشار برأسه
 إلى باب الكوخ الكبير .. ثم بدأ يتشغل عنا بنبش الأرض
 بأصابعه ..

وقال سليم في لهجة أكثر احتداداً :

- قم .. وبلغ الكاباكا أنا هنا ..

ولم يرفع الرجل رأسه إلينا .. خط بأصبعه خطاً طويلاً في
 التراب .. وظل صامتاً ..

والتفت إلى سليم وقال في غيظ يحاول أن يكتمه :

- أنهم أكسل خلق الله .. أنهم جثث ..

ولكنني لم اقتنع بأن الرجل كسول ، لقد رأيت في تصرفه
 نوعاً من التعدي .. نوعاً من الكراهية الصامتة ..
 وفي هذه اللحظة خرج صبي من الكوخ الكبير ، وما كاد

يلمحنا حتى عاد واختفى داخل الكوخ .. وبعد فترة خرج إلينا رجل ضخيم الجثة ، صارم ملامح الوجه ، يبدو في الخمسين من عمره ، وربما كان أكبر من ذلك .. ربما كان في الستين .. فإن الوجوه السوداء تخفى تحتها عمر أصحابها .. وكان الرجل يرتدى بنطلونا قصيرا لونه كاكي .. وصدره عار ، يبدو قويا رغم بعض الترهل فيه ..

ووقف الرجل أمام باب الكوخ ، مرفوع الرأس وقد وضع يديه في خاصرته ، ونظر الى سليم نظرة قوية ، ليس في قوتها حقد ولا كراهية .. وظل صامتا الى أن تقدم إليه سليم ، ومد يده مصافحا ، والحنى أمامه انحناء صغيرة ، وقال بالفرنسية في صوت يبدو لزجا مفا فيه من ثقاق :

— صباح الخير ..

وصافحه الرجل في كبرياء ، وهو يتسم :

— صباح الخير ..

ثم قدمنى إليه سليم ، وأعقب قائلا :

— انه من مصر ..

وابتم الكابابا ابتسامة مغلصة ، وقال وهو يشند على
يدى ..

— لقد سمعت عن مصر كثيرا .. لى صديق من السنغال

زار مصر وتعلم فى الأزهر .. انه الآن فى مدينة دكار ..

ثم التفت الى سليم قائلا فى لهجة جادة :

— فى خدمتك ؟

وأرخصي سليم عينيهِ وقال وهو يزفر :
— أخى سامى مريض .. والدكتور يعتقد أنك تستطيع أن
تساعده فى علاجه .
وارتفعت نظرة جزع الى عيني الزعيم ، وقال فى لهفة :
— مريض .. مريض ماذا ؟
وقلت فى هدوء :
— انها حالة عصبية ..
وأخنى الزعيم رأسه وهو يتنهد ، كأنه كان ينتظر أن يكون
مرض سامى متعلقا بحالة عصبية .. ثم التفت الى وقال فى
استسلام :
— كيف أستطيع أن أساعدك ؟
قلت بسرعة :
— أريد أن أقابل بيندا ..
ورفع الى عيني مندهشتين وقال كأنه فوجئ :
— بيندا .. ابنتى بيندا .. لماذا ؟
قلت :
— أعتقد أنها تعرف عن سامى أشياء كثيرة لا نعرفها ..
وقد أستطيع أن أصل من خلال ما تعرفه ، الى سر الحالة التى
يعانيها ..
قال وهو ينظر فى عيني كأنه يبحث فيهما عن حقيقتى ،
وشخصيته وقف قوية أمام شخصيتى :
— انى أعرف عن سامى كل ما تعرفه بيندا .. اسألنى أنا !

قلت في ثبات :

— أفضل أن أسأل بيندا أولا ..

وصمت الزعيم فترة ، وقد حنى رأسه يفكر ثم رفع رأسه
وسألني في صوت حزين :

— هل حالته خطيرة ؟

قلت :

— أعتقد أنها خطيرة ..

وهز رأسه في أسى ، ثم قال وهو يشير الى داخل الكوخ :
— تفضل ..

ودخلنا الى قاعة دائرية فسيحة ، أرضها من التراب ، ملقى
عليه بعض الأبسطة الوطنية ، وسقفها من فروع الأشجار ترتفع
بشكل مخروطي ، وحوائطها من الطين .. وقد انتشرت فيها قطع
غير متجانسة من الأثاث .. مقعد من الجريد .. ومقعد آخر كبير
من الخشب .. وصندوق وضعت فوقه مرتبة .. ومصطبة من
الطين كمصاطب الفلاحين عندنا ، فرشت فوقها حصيرة من ألياف
الشجر المجدول ..

وقدم لى الزعيم المقعد الكبير .. وجلس سليم على المصطبة
وهو يفرق ألقاسه ولا يتطلع حوله .. ودخل الزعيم من باب
جانبي ، وعاد وخلفه بيندا ..

انها نفس الفتاة التي رأيتها في مقهى « فاني » .. ورأيتها
مرة ثانية مع صديقتها على شاطئ النيجر .. ورأيتها مرة ثالثة
ترقص مع سامي في ساحة القرية ..

وكانت بيندا حافية القدمين ، وتوب من العماش الملون ..
غير مفصل .. مجرد قطعة من القماش .. تلف جسدها كله حتى
أعلى نهديةا ..

ووقت متعمدا بمجرد أن دخلت ، كأنى أقدم احترامى ..
وصافحتنى رهمى تنظر فى وجهى ..
وقلت لها مبتسما :

— أظن أننا التقينا من قبل ..
قالت فى بساطة دوز أن تبسم :
— أظن ..

ثم التفتت الى سليم . وهزت رأسها تحية فى رشاقة
وكبرياء .. وسليم لا يهتم بتحيتها ، ولكنه يخلق فيها بكل
عينيه ، كأنه يقارن بين شبهها ، وبين هذه المرأة الأخرى التى
كانت تأتى الى سامى فى طفولته وتروى له أساطير الزنوج ..
وعادت بيندا ورفعت عينيه الى تسألنى :

— ماذا تريد أن تعرف ؟

والتفت الى الزعيم قائلا :

— هل أستطيع أن أجلس معها على افراد ؟

ونقل الزعيم عينيه بينى وبين سليم ، وتردد قليلا ، ثم
خرج من الباب الجانبى ..

ونظرت الى سليم أطلب منه أن يخرج هو الآخر ، فخرج
من الباب الذى يؤدى الى ساحة القرية ..

ثم التفت حولى وقلت لبيندا وأنا أشير الى المصطبة :

— تفضلنى ..

وخطت بيندا فى كبرياء ، وجلست ورأسها مرفوع ، وقلت لها :

— ان سامى مريض .. مريض جدا .. حالته المصيبة قد تزدى به الى الجنون ..

ولم تندم بيندا وهى تسمعنى .. كأنها كانت تعلم أن سامى يمكن أن يكون مجنوناً .. ولكن طغت على وجهها مسحة من الحزن .. ونكست رأسها ..

وعدت أقول :

— انى أحاول أن أجمع كل تفاصيل حياته ، لعلى أستطيع أن أعرف سر حالته ، فأعالجها ..
قالت :

— هل هذا ضرورى لعلاجه ؟

قلت :

— نعم .. انه الطريق الوحيد لعلاجه ..

قالت :

— اسألنى ..

قلت :

— كيف التقيت به ؟

وتنهدت قائلة :

— كما يقابل الشبان البنات .. كنت فى المدينة ورأى سامى .. فسار ورأى .. وركبت الاوتوبيس الصغير الذى يمر

بقريتنا ، فركب ورائي .. ثم بدأ يكلمني .. ودهشت لأنه كان يتكلم لغتنا ، لغة الولف ، بطلاقة .. كأنه واحد منا .. وأخذنا تبادل الحديث الى أن وصلنا الى القرية .. وأذكر أنه كان يومها يبدو متعبا .. كأنه مريض .. وجهه باهت .. والعرق يتصبب من جبينه .. وأنفاسه لها صوت .. ولكننا بعد أن وصلنا الى القرية ، وقدمته لوالدى ، وجلس بين الفتيان ، بدأ يستريح .. ثم اشترك معنا في رقصة الليل .. واكتشفنا كلنا أنه راقص ماهر .. كأنه واحد منا .. وكل الشبان ، وكل البنات ، في قريتنا أحبه ..

وسكتت حيندا كأنها انتهت من الحديث ..

وقلت باهتمام شديد :

— وماذا حدث بعد ذلك .. ماذا حدث في ذلك اليوم ..

قالت :

— ظل يرقص حتى انتهى الليل .. ثم نام في أحد الأكواخ . ولكننا لم نجده في الصباح .. ولم يره أحد وهو ينصرف .. وضحكنا كثيرا يومها ..

وسكتت حيندا قليلا وهي تتنهد :

— لقد طلب منى أبى يومها ألا أقابل سامى مرة ثانية ..

قلت :

— لماذا .. هل يحرم عليك والدك مقابلة الشبان ؟

ونظرت الى في دهشة قائلة :

— لماذا يحرم على مقابلة الشبان .. لا .. لم يحرم على مقابلة الشبان ..

قلت :

— ولماذا حرم عليك مقابلة سامي :

قالت في صوت حائر :

— لا أدرى .. ربما كان يعلم ما يمكن أن يصيبني من عذاب

لو أحببته ..

قلت :

— هل أحببته ؟

قالت :

— لقد حاولت منذ اليوم الأول أن أنساه .. أن أقنع نفسي بأني لا أهتم به .. ولكنني كنت أنتظره .. اكتشفت ألي أنتظر بكل دقيقة من عمري ، لعله يعود .. ولكنه لم يعد .. مرت ثلاثة أسابيع ولم يعد ، كنت خلالها أقاوم اهتمامي به .. ولكنني لم أستطع أن أستمع في المقاومة ، فذهبت الى المدينة ، وأخذت أبحث عنه .. بحثت عنه كثيرا الى حد ألي جازفت ودخلت الأماكن المخصصة للبيض .. الى أن وجدته في مقهى فاني .. ووقفت أمامه .. فنظر الى كآله لا يذكرني .. فالصرفت غاضبة ولكنني لم أكد أخرج من المقهى وأسير بعض خطوات حتى شعرت بقدمين تتبعاني .. والتفت فاذا بن أجدته ورأني .. وتكرر نفس ما حدث في المرة الأولى .. حادثني بلفتة .. وركب معي الأتوبيس الصغير ، وهو يبدو متعبا مريضا ..

العرق يتصبب من جبينه ، وأتقاسمه لها صوت .. ثم استراح
بمجرد أن دخل القرية .. ورقص معنا .. ثم اختفى عند الفجر ..
ثم استطردت وهي تتهد بعرة :
— هذا هو حالنا دائماً .

قلت :

— حتى اليوم ؟

قالت :

— حتى اليوم .

قلت :

— ألم يأت الى القرية أبدا من تلقاء نفسه ؟

قالت :

— أبدا .. في كل مرة أذهب للبحث عنه .. وفي كل مرة
يبدو كأنه لا يعرفني .. ثم يتبعني ..
قلت :

— تقولين انه كان يبدو في كل مرة كأنه لا يعرفك .. بماذا

تسبين ذلك ؟

قالت :

— كنت أعتقد أنه يتجاهلني ، حتى لا يلتفت نظر أحد من

البيض إلينا ..

قلت :

— هل تعتقدين أنه يحبك ..

ونظرت الى في غضب ، كأنها تلموني على هذا السؤال ..
ثم الطفأت نظرتها .. ولكست رأسها .. وصمتت ..
قلت كآلى أثيرها :

— لماذا لا تريدان الإجابة على سؤالى ..
ورفعت رأسها في بطة ، وركزت عينيها في عيني ، وقالت في
ثبات :

— هل أنت حقيقة دكتور ؟

قلت في دهشة :

— نعم .. هل تريدان التأكّد ؟

وأخرجت من جيبي جواز سفرى الذى أحمله معى دائماً ،
وفتحته أمام عينيها ..

وهم تنظر الى جواز سفرى ، ولكنها عادت تقول وعيناها
مركزتان في عيني :

— هل تستطيع فعلاً شفاءه ، لو عرفت كل شيء ؟

قلت :

— أعتقد ..

وأرخت عينيها عن وجهى ، ولكست رأسها ، وقالت في .
صوت خفيض :

— لقد تزوجنى ..

قلت والدهشة تصرخ في صوتى :

— من ؟

قالت ودمعة كبيرة تهر من عينيها :

— سامى .. لقد عارض أبى كثيرا فى أن تزوج .. بقى عام كامل وهو يرفض زواجنا .. ولكنه فى النهاية خشى على من الجنون .. وخشى على من أن أهرب من القبيلة .. فزوجنا .. قلت :

— هل هو زواج مسجل ؟
قالت فى دهشة :

— ماذا تعنى ؟
قلت :

— هل هو زواج شرعى .. مسجل فى دفتر حكومى ؟
قالت :

— أبى له حق تزويج أفراد القبيلة .. ان قبيلتنا لا تعتنق الاسلام ، ولا المسيحية .. انا وثنىون ..

وهزئت رأسى معتذرا عن جهلى ، وعدت أسأله :

— وهل علم سليم بهذا الزواج ..
ونظرت الى فى غضب وقالت :

— لأ طبعاً .. لا أحد يعلم الا أفراد قبيلتنا وقد جمعهم أبى وجعلهم يقسمون بحق الآلهة ألا يبيعوا بالسر .. قلت فى دهشة :

— لماذا .. لماذا أصر الزعيم على إبقاء هذا الزواج سرا ..
قالت وهى تنهد :

— لا أدرى .. انه يقول دائماً انه يعرف ما لا نعرفه .. قلت :

— وكيف اتفقتما على الزواج .. أنت وسامى ..
قالت وعيناهما تسرحان الى بعيد كأنها تجرى وراء
ذكرياتها :

— بعد أن انتهينا من الرقص .. قلت له : لتتزوج ..
فضحك ضحكة كبيرة ، وشدنى من يدي وذهب بى الى والدى
وطلب منه أن يزوجنا .. وثار والدى ، وعارض .. وظل يعارض
أكثر من سبعة أشهر الى أن وافق .
قلت :

— وهل ظل سامى يختفى عند الفجر ، بعد زواجكما ؟
قالت :
— نعم .. لقد فكرت أن تتزوج لاعتقادی أنه لن يختفى
بعد الزواج .. ولكنه ظل يختفى ..
قلت :

— ألم تلاحظى الطريقة التى يختفى بها ؟
قالت :

— لقد كان أحيانا يبقى معى ليلة واحدة ، وأحيانا يبقى
يومين وثلاثة .. كان يبدو رقيقا هادئا كالعصفور .. وعند ما
برقص يبدو قويا ثائرا كالبرق .. وكنت خلال هذه الأيام
لا أنام .. أظل أقبله حتى ينام وهو بين شفتى .. ثم أبقى مفتحة
العينين خائفة من اللحظة التى يختفى فيها .. وفى هذه اللحظة
يقوم من جانبى ويسير وكأنه لا يزال نائما .. وتبدأ قطرات

العرق تصيب من جيئه .. وأنفاسه تتلاحق ، ويخرج من
القرية ، ويمشي في اتجاه المدينة ..

قلت :

— ألم تحاولي مرة أن تمنعيه من الخروج ؟

قالت :

— لا .. اني أخافه وهو في هذه الحالة .. وكنت أتبعه
عند ما يخرج .. أمشي وراءه .. وأسبقه أحياناً ، ثم أعود اليه ،
وأضع وجهي أمام وجهه ، فينظر الى بعينين ذاهلتين ، ولا
يعرفني .. انه وهو في هذه الحالة لا يعرف أحداً .. لا يعرف
أبى .. ولا يعرف أحداً من فتيان القبيلة ..

وتنهدت بيندا ، واستطردت قائلة في صوت حزين ، ولهجتها
الفرنسية تنكسر فوق شفيتها. المكتنزين :

— لقد تعبت مرة من المشي وراءه .. فجريت اليه وتعلقت
بذراعه وأخذت أهزه ، وأضرب يدي على صدره ، وأصرخ في
وجهه .. لعله يفيق .. ولكن عينيه أضاءتا بنظرة غريبة ..
مجنونة .. ثم أخذ يضربني .. ضربني بقسوة وهو يلعنني
بكلمات بذية .. لم يكن يلعنني وحدي .. بل كان يلعن كل
الزواج .. ومن يومها لم أعد أمشي وراءه .. كنت أنكره يختمني
عند ما يريد .. وفي كل مرة أقرر ألا أراه ثانية .. ويمضي أسبوع
أو أسبوعان ، وأنا أقاوم ، ثم لا أستطيع أن احتمل شوقي
اليه ، فأذهب الى المدينة للبحث عنه .. وأعود به الى القرية ..

وقلت فى لهفة :

— وعند ما تعودين به ، هل يذكر كل شئ بينكما ا

قالت :

— انه يبدأ دائما بمغازلتى فى الاوتوييس الصغير ، كأنه يلتقى بى لأول مرة .. وقطرات العرق فوق جبينه ، وأنفاسه لها صوت .. ولكنه يتطور خلال الطريق ، وعند ما نصل الى القرية يصبح كأنه واحد منا .. يذكر كل شئ .. بل يعتقد أنه لم يغادر القرية ولم يتركنى أبدا ..

قلت :

— ألم يحاول والدك أن يفسر لك هذه الحالة التى تنتاب سامى ؟

قالت والدموع واقفة بين جفونها :

— لا .. وعند ما كان يرى عذابى ، كان يلومنى ويحملنى المسئولية ، لآلى خالفت رأيه وصممت على الزواج من سامى ..
قلت فى هدوء الطبيب :

— شكرا .. هل أستطيع الآن مقابلة الكاباكا ؟

ونظرت الى فى توسل .. وبياض عينيها ينير وجهها ..
وابتسامة غريبة ضعيفة تقف فوق أسنانها البيض ، وقالت :
— هل تستطيع حقيقة أن تشفيه ؟

قلت :

— سأحاول ...

قالت :

— عدلى أن تحاول أكثر ..

قلت وأنا ابتسم فى اشفاق :

— أعدك ..

وقامت من جانبى ، وقوامها الرائع .. قوام التاسعة عشرة ..
ملتفت فى قطعة القماش يتحرك نحو الباب ..

وبعد قليل عاد الزعيم الى القاعة .. طويلا .. مهيبا .. رافع
الرأس .. متجهم الوجه .

وأطل سليم برأسه من الباب الآخر ، وعند ما رأى أن ييندا
قد انصرفت ، هم بالدخول .. ولكنى قلت له بالفرنسية ، حتى
يفهمنى الزعيم :

— أرجوك يا سليم .. انتظرنى فى الخارج .

ونظر الى سليم فى ضيق ، ثم نظر الى الزعيم .. وخرج وهو
يضرب الأرض بقدميه فى غيظ :

وملأ الزعيم صدره بأنفاسه ثم قال وهو لا ينظر الى وجهى :

— ماذا قالت لك ييندا .. لقد تركتك وذهبت تبكى فى

حجرتها ..

قلت فى صوت هادىء ، كأنها لم تفل لى شيئا مثيرا :

— قالت لى انها تزوجت سامى ..

ورفع الى وجهه بفتة ، وبياض عينيه يضىء وسط سواد

وجهه ، فيبدوان كأنهما مصباحان قويان معلقان فى الليل .. ثم

عاد وأطفأ عينيه .. وأدار وجهه عنى ، وقال وهو يتنهد :

— هل قالت لك ذلك ؟

قلت وبين شفتي ابتسامة هادئة :

— وقالت لى انك عارضت بشدة فى هذا الزواج ..

وهز رأسه موافقا ، وتمتم :

— نعم عارضت ..

قلت :

— لماذا ..

قال فى حدة غاضبة :

— لألى لا أوافق على أن تتزوج احدى بنات القبيلة من

أبيض ..

قلت :

— ولكنى لاحظت أنك تحب سامى ..

قال وهو يهز رأسه :

— نعم .. أحبه .. أحبه كما أحب ابنى .

ثم استطرد فى صوت مرتفع :

— ولكن هذا لا يكفى لأوافق على زواجه من ابنتى ..

بل انى عارضت من أجل سامى أيضا ..

قلت :

— ان هناك زيجات مختلطة سعيدة ..

قال :

— مستحيل .. انها كلها زيجات شقية .. والأبناء الذين

يولدون من هذا الزواج كلهم أشقياء .. انى لا أريد أن يكون
حفيدى ما تيس ..

قلت :

— ولكنك عدت ووافقت على هذا الزواج ..

قال فى أسى :

— نعم .. وافقت ..

قلت :

— لماذا ؟

قال وهو يزفر أنفاسه كأنه ضاق بالتحقيق معه :

— لأنى خشيت أن تفعل ابنتى مثل ما فعلت .. و ..

وتوقف عن الكلام فجأة ..

واتظرت أن يتم حديثه ، ولكنه لم يتمه .. أطبق شفتيه ،
وظل صامتا ينظر بين قدميه .

قلت أتعجله :

— مثل ما فعلت من ؟

وهب واقفا وقال فى عصبية :

— لن أقول شيئا .. آسف .. لن أستطيع مساعدتك ..

قلت :

— من أجل سامى ..

قال :

— ولا من أجل سامى ..

قلت :

— انه ليس سامى وحده .. ان معه ابتك بيندا .. ويوم
يشفى سامى سترتاح بيندا ..

قال وهو يدير ظهره لى ووجهه فى الحائط :

— ومن أدراى أنه سيشفى ؟

قلت :

— أوكد لك أن كثيرا من الحالات المشابهة استطعت
شفاءها .. انك لا تعرفنى .. ولكنى معروف فى كثير من الدوائر
العالمية . وأقول لك ذلك بلا غرور .. انما لأنى أريد أن أساعد
سامى .. لقد أحبيته أنا أيضا ..

وظل الزعيم صامتا وهو يدير ظهره لى ..

ثم خرج من باب الكوخ ، ورفع رأسه الى السماء .. ونظر
فيها مدة طويلة .. ثم عاد الى ، وقال فى صوت أجش :

— عد الى فى المساء ، اذا أبرقت السماء ..

قلت :

— لماذا ، عند ما تبرق السماء ؟

قال :

— لأنى مرتبط بعهد ، لا تستطيع أن تحلنى منه ، الا

السماء ..

قلت :

— واذا لم تبرق السماء ؟

قال :

— لا تعد ..

قلت :

— انى لا أستطيع أن أفهم علاقة البرق بموضوعنا ..

والثفت الى غاضبا وقال فى حدة :

— هناك أشياء كثيرة لن تفهمها .. افعل كما قلت لك !

ثم هدا قليلا واستطرد يعتذر عن حدثه :

— آسف .. انى مرتبك ..

ثم مد يده يصافحنى مودعا ..

وقلت :

— الى اللقاء هذا المساء ..

قال :

— اذا أبرقت السماء ..

وهزئت رأسى مستسلما ، وخرجت ، وتأبطت ذراع سليم ،
أسحبه نحو العربة ..

وقال سليم وهو يهرول ليلحق بخطواتى السريعة العصبية :
— ماذا عرفت ؟

قلت وأنا أجلس بجانبه فى السيارة :

— لا تسألنى .. لن أقول لك شيئا الآن ..

وكنت مصمما فعلا على ألا أقول له شيئا ، حتى لا ينقل

ما يسمعه منى الى سامى ، فيفسد خطتى .. أو يشور ويعود الى
الكاباكا نائرا ليكذب قصة زواج سامى من ابنته .. فأفقد ثقة
الكاباكا ..

وسكت سليم احتراماً لارادتى ..
ثم قلت له وأنا نائله فى أفكارى :
— ماذا يعنى البرق بالنسبة لهذه القبيلة ؟
قال :

— انهم يؤمنون بالظواهر الطبيعية ، وأهمها البرق ا
ورفعت رأسى الى السماء ..
ان السماء صافية .. ليس فيها قطعة سحب واحدة .. والجو
حار .. وليس هناك ما يبشر بالمطر ..
يبدو أن السماء لن تبرد هذه الليلة ..

- ٧ -

أوصلنى سليم بسيارته حتى باب الفندق ، وقلت له وأنا
أهم بالنزول :
- أرجو أن تمر على فى الساعة الثامنة ، أو اذا أمطرت
السماء قبل ذلك ..
ونظر الى سليم فى دهشة وقال علامة استفهام كبيرة
مرسومة على وجهه :

- لماذا .. ماذا يعنى المطر بالنسبة لنا ؟

قلت وأنا أنزل من السيارة بسرعة :

- ستعرف كل شيء .. ليس الآن !

وتركته دون أن أتنظر مزيدا من أسئلته والحاحه ، ودخلت
الفندق .. وقال لى البواب ان سامية مرت على فى الصباح ،
ولم تجدلى .. وانتظرتنى طويلا ، ثم الصرفت .. وقال انه رآها
تبكى بعد أن طال انتظارها .. ولم أهتم .. فقد كنت أعلم سبب
بكائها .. انها عند ما جاءت ولم تجدلى ، اعتقدت ألى سافرت
الى لبنان دون أن أصحابها معى ..

وصعدت الى غرفتى بعد أن نهت على البواب ألا يسمح
لأحد بمقابلتى الا لسليم ..



ولم أكن تعباً .. ولكنى كنت فى حاجة الى تركيز ذهنى فى هذه المعلومات التى سمعتها من بيندا ، ولم يكن أهم ما سمعته منها أنها تزوجت سامى ، بل كان الأهم هو ما قالت عن سيطرة شخصيته الزوجية عليه بمجرد دخوله القرية ، لدرجة أنه ينسى الأيام التى قضاها بعيداً عن القرية خاضعاً لشخصية الرجل الايبض .. ينسى الفاصل بين الشخصيتين ، حتى لو استمر هذا الفصل أسبوعين أو ثلاثة .. ويعود الى القرية كأنه لم يتركها أبداً .. كأن الأيام لم تمر .. ويبدأ حياته فيها من نفس اللحظة التى تركها فيها .. فإذا كانت زوجته قد سألته قبل اختفائه : «ازاى صحتك» عاد بعد ثلاثة أسابيع وقال لها : «الله يسلمك» .. كأنه سمع سؤالها فى نفس اللحظة التى عاد فيها ..

انها حالة خطيرة ..

حالة مركبة ..

ولم يكن ما يحيرنى فيها خطورتها ، بل كان ما يعيرنى هو طريقة علاجها وهى بهذه الخطورة ، خصوصاً وأن ليس لدى الوقت الكافى لاتباع الطرق العادية فى العلاج التى قد تستغرق شهوراً طويلة ..

وخيل الى أن السر الذى يحتفظ به الكاباكا ، قد يعينى على تحديد طريقة العلاج ..

بل الواقع أنه لم يعد لى أمل فى اكتشاف طريقة العلاج الا فيما يمكن أن يقوله لى الكاباكا ..

ولكن الكاباكا ينتظر أن تبرق السماء حتى تحله من عهد
قطعه على نفسه ..

وخرجت الى شرفة غرفتي ، أنطلع الى السماء ..
لا أمل ..

السماء صافية كاللبن ..

ليس فيها قطعة سحب .. والهواء راكد ثقيل .. والطبيعة
كلها صامتة ، كأنها نامت تحت تأثير هذا الجو الحار ..
وقضيت الوقت .. أسجل مذكراتي .. وأحاول أن أنام
حيناً .. ثم اخرج الى الشرفة لعل شيئاً حدث في السماء ..
ولم يحدث شيء ..

وفي الساعة السابعة والنصف نزلت الى حديقة الفندق
أنتظر سليم .. وقال لي البواب ان سامي مر على ، وأنه أخبره
بأني نائم ، وأني طلبت ألا يزعجني أحد ..
وحمدت الله لأنني لم أقابل سامي .. فلم أكن أريد أن أقابله
قبل أن أجمع كل المعلومات التي تعينني على حالته ، حتى أفاجئه
بها في أول مقابلة لنا ..

وجلس في الحديقة أتناول قدحا من الشاي .. وهواء رقيق
بدأ يخفف من حرارة الجو ، ويهز أغصان الأشجار ..
وتلمست الهواء بوجهي ، وأنا أتساءل :
هل يمكن أن يكون هذا مقدمة لهطول المطر ..
من يدري ؟
وجاء سليم ، وسأله بلهفة :

— هل تعتقد أنه يمكن أن تمطر السماء هذه الليلة ؟
ورفع سليم أنه الى السماء ، كآله يشمها ، ثم قال :
— ربما .. كل شيء يمكن أن يحدث .. ان الطبيعة هنا
كالأهالي أنفسهم .. لا يمكن أن تفهمها .. وتصرفاتها تلقائية
مفاجئة .. ليس لها سبب .. تفرح فجأة .. وتبكي فجأة .. وتنام
فجأة ..

ثم نظر الى واستطرد وفي عينيه نظرة توسل :
— ألا تقول لي لماذا تنتظر المطر والبرق ؟
قلت :

— ليس الآن ..
قال :

— هل للمطر والبرق علاقة بخالة أخي سامي ؟
قلت :

— نعم ..

قال وهو يبتسم في استخفاف :

— يبدو أنك أصبحت تؤمن بسحر الزنوج ..
وابتسمت ابتسامة سخيفة ، دون أن أرد عليه .. كنت قد
أصبحت أنا نفسي في حالة عصبية من طول انتظارى للمطر ..
وفجأة ..

سقطت قطرة ماء على كفي ..
لعلها بدأت تمطر ..

وكنمت فرحتى ، ولم أتحرك من مكانى ، كالى خفت ان
أفرحت أو تحركت ، أن تعدل السماء عن رأيها ..
وسقطت قطرة أخرى فوق وجهى ..
وتلاحقت القطرات .. رذاذ خفيف من المطر .. وانتفضت
واقفا وأنا أصيح :

— انها تمطر .. هيا بنا !
ونظر الى سليم كالى مجنون ، ثم لحق بخطواتى السريعة
نحو السيارة ..
وقلت له وأنا أركب بجانبه ، أطلعه على سر انتظارى للمطر ،
لأريعه :

— لقد وعدنى الكاباكا أن يطلعنى على سر كبير ، اذا أحلت
السماء من العهد الذى أخذه على نفسه .. وكانت علامة حله من
عهده هى ظهور البرق ..
وتتم سليم قائلا :
— انه أفاق ..

وقلت كالى لم أسمعه :
— أظن أنها ما دامت قد أمطرت ، فلا بد أن يظهر البرق ..
قال وهو يهز كتفيه فى امتعاض :
— ربما ..

وصمتنا ونحن فى طريقنا الى الغابة ..
ولم تثر فى الغابة هذه المرة نفس الشعور الذى كنت أحس
به كلما مررت بها .. لم أحس إطلاقا بأنى أمر فى غابة .. كان

كل احساسى وكل ابتهاجى ، وكل ترقبى ، محصورا بين شفتى
الكاباكا .. والسرا الكبير الذى يحتفظ به بينهما ..
وعند ما اقتربنا من القرية بدأت أسمع صوت قرعات
طبول ..

لم تكن فرعات مرحة سريعة كالتي سمعتها في الليلة الأخرى
.. ولكنها كانت قرعات بطيئة .. ضخمة .. رهيبة .. تهل الأرض
وتهل السماء ..

واقترنا أكثر .. ودقات الطبل تزداد قوة ، وضخامة ،
ورهبة ، وتخلع قلبى ..

ثم بدأت أسمع من خلال دقات الطبل ، أصواتا حزينة ،
مهممة .. تملو حينا فتبدو كالصراخ .. ثم تعود مهممة في
حزن ..

وتركنا السيارة على جانب الطريق .. وتزلنا ورذاذ المطر
يتساقط علينا في رفق .. وسرنا بين أشجار الغابة .. كنت أنا
الذى أقدم سليم هذه المرة .. ثم اختبأت وراء أغصان شجرة
صغيرة تطل على ساحة القرية .. وسليم بجانبى .. وعينائى
نخترقان الظلام ..

كانت القرية غارقة في الليل .. ليس هناك سوى هذا الضوء
الأصفر الخافت ، ينطلق من مصباح صغير موضوع على
الأرض ، بجانب قارع الطبل ..

والأهالى يقفون في دائرة كبيرة وقد اختفت وجوههم بين
طيات الظلام .. وقارع الطبل يرفع ذراعيه ويهوى بهما في قوة ،

كأنه يصارع شبحا ، وقطرات المطر تلمع فوق جسده العارى
الضخم ، وتبدو في ضوء المصباح الخافت كعجبات من الماس
الاصفر .. والكاباكا منتصب بقامته المديدة وسط الساحة ،
وقد وضع فوق جسده جلبابا فضفاضاً ، ناصع البياض ، يبدو
وسط الليل كشعاع الفجر .. ورذاذ المطر ينسكب فوقه في
رفق .. ويرفع ذراعيه الى السماء ، ويتمتم بكلمات لا أفهمها ..
وصوته عتيق قوى ، تستطيع أن تميزه من خلال قرعات الطبل ..
ثم يسكت ويخفض ذراعيه ، فيتمایل أهالى القرية وهم يترنمون
بلحن غريب حزين .. ثم يعود الكاباكا ويرفع ذراعيه الى السماء ،
ويتمتم بكلمات أخرى .. فيصرخ الأهالى صرخات حادة ، وهم
يرنمون أذرعهم ويتمایلون بها .. كأنهم يولولون .. كأنهم
يستنجدون بالسماء ..

ودقات الطبل لا تتوقف ..

دقات ضخمة هائلة .. تملأ الأرض والسماء .. وأحس بها فوق

رأسى !

وقميصى قد ابتل والتصق بلحمى .. وقدمائى تفوصان في
الطين .. ولكنى لا أحس بالبلل ، ولا بالطين .. ورأسى تحت
قبعتى الكبيرة ، ساخن ، كل شعرة فيه تلتهب بالهفة والرغبة .
والهواء بدأ يهب في عنف .. والأشجار من حولنا بدأت
تتمایل في وشوشة صاخبة كأنها مذعورة .. وجلباب الكاباكا
يطير مع الهواء ، فيبدو كأنه وشاح ملاك .. وقبعتى تكاد تطير
من فوق رأسى .

ونجاة ..
صرخت السماء ..
أرعدت ..
ومع الرعد ، انطلق ضوء البرق ..
ظهر نور الله ..
وسكتت قرعات الطبل .. وسكت الأهالي .. ورفع الكاباكا
ذراعيه الى السماء صامتا .. وقد الفرجت شفتاه عن أسنانه
البيض ..
وهطل المطر ..
مطر عنيف .. كأن المحيط انتقل فوق رؤوسنا وبدأ يفرغ
مياهه علينا ..
ونجاة أيضا انتهت فترة الصمت .. وبدأت الطبول تدق
من جديد .. ليست هذه الدقات البطيئة الرهيبة .. ولكن دقات
سريمة مرحة .. وانطلق الأهالي يقفزون في الهواء وهم يصرخون
كأنهم يزغردون ..
والرعد يعود ويدوى ، فيخلق أذلى ..
والبرق يعود ويبرق ، فيخلق عيني ..
وقمت من وراء الشجرة التي أختبئ فيها .. وتقدمت الى
الساحة ، أخوض في الطين وبجائبي سليم ..
ولم يتوقف أهالي القرية عن الرقص عند ما رأونا ، ولم
تسكت الطبول .. ومد الكاباكا يده يصافحني ، ووجهه يبدو
من خلال خيوط المطر ، هادئا مبتسما .. وجه كاهن انتهى من

صلاته ، واستجاب الله لدعائه .. ثم صافح سليم .. وتقدمنا نحو الكوخ الكبير الذى يتوسط صف البيوت التى تحيط بالساحة .

وأحسست بمجرد أن دخلت الكوخ كأنى وصلت الى الشاطئ . بعد أن سبحت طويلا فى مياه المحيط .. المحيط الذى ينسكب فوق رؤوسنا

وتركنا الزعيم بمجرد دخولنا ، قائلا وابتسامته تبرى فوق أسنانه البيضاء :
— عن اذلكم ..

وخرج من الباب الجانبى .. وخلعت قبعتى ، وجلست على المصطبة المفروشة بحصير من ألياف الشجر المجدول ، وبدأت أخلع حذائى وجوربى اللذين بللهما المطر .. وجلس سليم بجانبى يخلع هو أيضا حذاءه وجوربه .. ورعشة خفيفة تسرى فى عروقى ، حتى خلت أنى على وشك أن أمرض ..

وعاد الزعيم بعد قليل ، وهو يرتدى جلبابا جديدا مخططا بألوان زاهية ، ويحمل بين يديه جلبابين أبيضين ، أعطى لكل منا جلبابا ، وهو يقول مبتسما :

— أظن أنكما فى حاجة الى تغيير ثيابكما .

وكنا فى حاجة فعلا الى تغيير ثيابنا .. وخلعت قميصى المبلول بسرعة ، وارترديت الجلباب الفضفاض .. ثم خلعت بنطلونى من تحت الجلباب بعد أن أفرغت جيوبه .. وفعل سليم نفس الشيء

وهو ينظر الى الكاباكا في دهشة وحذر ، كأنه لا يصدق أن يلتقى
منه هذه المعاملة الطيبة ..

وحمل الكاباكا ثيابنا المبتلة الى داخل البيت ، قائلا :
— سنجففها بجانب النار ..

ثم عاد بسرعة ، وجلس على المقعد الكبير وأشار لنا بأن
نجلس على المقعدين الآخرين المصنوعين من الجريد .. وتهدأ في
راحة كأنه يفصل بين مهمة شاقة انتهى منها ، ومهمة أخرى يبدأ
فيها .. ثم حنى رأسه وركزها فوق قبضة يده برهة طويلة ،
وعند ما عاد ورفعها ، كان وجهه جادا ، متجهما ، ليس فيه أثر
لإبتسامة ..

وقال في صوت خفيض :

— انا في انتظار ابنتى بيندا .. ستأتى حالا ..
وجلسنا صامتين .. وعاد الكاباكا ومال برأسه فوق قبضة
يده ..

وبعد قليل دخلت بيندا حافية القدمين ، ملتفة في قطعة من
القماش حمراء اللون ترتفع حتى تغطي نهديهما ، وترك كتفهما
عاريتين .. وشعرها الأسود الناعم مسدل على ظهرها كأنها تجر
وراءها قطعة من الليل ..

وهزت بيندا رأسها الصغير تحيينا دون أن تصافحنا ،
وهمست باللغة الفرنسية التى تبدو وكأن الساما آخر يتكلم
من حلقها .. انسان أبيض :
— مساء الخير ..

ثم جلست فوق الوسادة الموضوعة فوق الصندوق الخشبي الكبير .. والمصباح الصغير يلقي ضوءه الباهت على ثوبها الأحمر ، فتبدو كأنها لوحة فنية رسمها فنان .. ورفع الكاباكا رأسه ، وقال في صوت خفيض عميق ، وخطوط كثيرة تشق جبينه :

— لقد أحلتني الساء من عهد احتفظت به ثلاثين عاما .. الآن أستطيع أن أقول كل شيء .. بأمر الساء ..

وسكت وهو يتنهد ، ونظرة حزينة تملأ عينيه .. وقلت وألا أمد رقبتى نحوه لألتقط كل لفظ من ألفاظه :

— هل تريد أن يبقى سليم معنا ؟

وكنت أعتقد ألى في حاجة الى توجيه هذا السؤال ، حتى أعفيه من الحرج اذا كان مخرجاً في التخلص من سليم ، وحتى أكتسب مريداً من ثقته ، اذا كان في قلبه بقية من شك في الى أعمل في خدمة سليم لا في خدمة الطب ..

وأجب الكاباكا في هدوء :

— لا .. ليق سليم . آن الأوان لسمع سليم القصة .. كل ما أرجوه ألا يكتفى بسماعها ، بل يعاول أن يفهما .. ثم سكت ..

وسليم ينظر اليه بعينين جاحظتين ، فيهما نوع من التحدى والاستغلاء ..

وطالت فترة سكوت الكاباكا وكلنا ننظر اليه .. بعيوننا .. برءوسنا .. بقلوبنا .. بلهفتنا ..

وأخيرا مال الكاباكا بظهره على مسند مقعده ، وفرد ذراعيه فوق ساقيه ، وبدأ يتكلم دون أن ينظر الى أحد منا .. يتكلم في بدء ، كانه يشد الكلمات من بعيد .. وقال وعيناه مركزتان في سقف الكوخ :

— كان في قرينتنا فتاة جميلة .. أجمل بنات القبيلة .. بل أجمل بنات مالى .. وكانت طيبة .. رقيقة .. ذكية .. حلم كل شباب القبيلة .. حلم كل شباب السودان .. وكان الزعيم يدلها كثيرا .. بل كان يشركها معه في رأيه .. ولكن الدلال لم يفسدها .. لم تفتن .. ظلت طيبة .. رقيقة ..

وتنهذ الكاباكا في أسى ، كانه يطرد دموعا تتجمع في صدره .. واستطرد قائلا :

— وذهبت الفتاة الجميلة ، يوما الى المدينة الكبيرة .. الى باماكو .. برفقة بعض بنات القبيلة .. ولم تكن تذهب الى المدينة الا نادرا .. مرة ، أو مرتين في العام لتشتري الاقشنة والحلى .. وعادت من المدينة دون ان يبدو عليها شيء .. ربما بدت يومها أكثر مرحا .. وبعد أسبوع ، ذهبت الى المدينة مرة أخرى ، وعادت في المساء .. ثم ذهبت الى المدينة في الأسبوع التالي .. ثم أصبحت تذهب كل أسبوع .. وأحيانا مرتين في الأسبوع .. وبدأ بنات القبيلة وشبابها يتهامسون .. وبدأت الاشاعات تحيط بها .. وقد بلغت هذه الاشاعات أذنى الزعيم ، ولكنه سكت عليها .. أو ربما لم يصدقها .. لم يكن أحد يصدق أن الفتاة الجميلة ، الطيبة ، الذكية ، يمكن أن ترتكب خطأ ..

وسكت الكاباكا برهة ومال برأسه على صدره ، ثم عاد ورفعها وعيناه أشد حزنا ، والخطوط العميقة قد ازدادت فوق جبينه ، واستطرد قائلا في صوت أكثر خفوتا :

— وصحا الزعيم يوما من نومه ، وسأل عن الفتاة الجميلة فلم يجدها في القرية .. ذهبت الى المدينة .. وثار الزعيم .. واستدعى بعض صاحباتها يسألهن عن سرها .. الهن لا يعرفن شيئا .. وهى لا تتحدث اليهن عن سرها .. وكلما عادت من المدينة ظلت معتكفة عنهن الى أن تذهب الى المدينة مرة أخرى .. ولكن واحدة من صاحباتها قالت للزعيم انها لاحظت في المرة الاولى التى ذهبت معها الى المدينة ، أنها وقفت طويلا تتحدث الى شاب أبيض .. وكانت عينها وهى تعادته ، تلمعان ، وابسامتها تملأ وجهها .. واشتدت ثورة الزعيم .. وأيقن أن الفتاة الجميلة على علاقة برجل أبيض .. وانتظرها الى أن عادت في المساء .. وسألها عن سرها .. فرفضت أن تعترف .. كانت تعلم أن الزعيم لن يتسامح في خطيئتها الكبرى .. كانت تعلم أن القرية رغم أنها أقرب القرى الى المدينة الكبيرة ، الا أنها أشدها محافضة على التقاليد الوطنية .. لذلك خافت أن تعترف بسرها .. ولكن الزعيم قسا عليها .. لأول مرة يقسو عليها .. وجرها الى ساحة القرية ، ووسط كل الشبان والبنات ، ضربها .. ضربها كثيرا .. لأول مرة يضربها ، وظل يضربها حتى صرخت قائلة : نعم .. اله أبيض .. وأحبه ..

وسكت الكاباكا ، وشفتاه لا تزالان ترتعشان ببقايا كلماته.

وأدبرت رأسى الى بيندا .. انها جالسة ملتفة فى الوشاح
الأحمر .. ووجهها غارق فى الدموع .. دموع صامتة ..
وتنهذ الكاباكا واستطرد ، وهو جريص على ألا ينظر لواحد
منا ، كآله يروى القصة لنفسه :

— وحرم الزعيم على الفتاة الجميلة الذهاب الى المدينة ..
وخاصمها كل أهل القرية .. قاطعوها .. كانت كلما مرت بواحد
منهم أدار لها ظهره .. ولكنها لم تأبه بهم .. وتحدثهم ..
واستمدت من كبريائها المجروحة قوة أكبر للعناد .. وبعد أيام
استطاعت أن تترك القرية دون أن يراها أحد .. وذهبت الى
المدينة .. وعادت قبل المساء وهى تجر وراءها الشاب الأبيض
الذى تحبه .. كان شابا طويلا ، قويا واسع العينين .. يبدو من
ملبسه أنه مهاجر فقير .. وكان يسير وراءها وهو خائف ..
يرتعد .. ينظر اليها كآله يتوسل .. كآله على وشك البكاء ..
هذا الرعديد ، الجبان .. ولكنها كانت تفقد من يده .. الى أن
دخلت به الى الزعيم وضاحت فى جراحة وتعد .. تريد أن تتزوج
.. وزار الزعيم كالأسد .. وقف على الشاب الأبيض كالنمر ..
وأخذ يدفعه خارج الكوخ .. ثم خارج القرية .. وهو يسبه ..
يلعنه .. ويلعن كل البيض .. والشباب الأبيض يهرول أمامه ..
وهو يتوسل .. ويصرخ .. هذا الجبان الرعديد .. الى أن خرج
من القرية .. وخرج كل شباب القرية يسرون وراءه صامتين ..
فقط ينظرون اليه بعيونهم الغاضبة .. وهو يهرول أمامهم ..
ثم يعود ويتلفت اليهم متوسلا أن يرحموه .. ولكنهم لا يجيبون

.. لا يتكلم أحد منهم .. كلمة تخرج من شفاهنا خسارة فيه ..
ويهرول .. ويجرى .. ونحن دائماً وراءه .. الى أن وصل الى
مدخل المدينة ..

ومسح الزعيم علامات الغضب والغل التي بدت على وجهه
وهو يتحدث عن هذا الشاب الأبيض .. ثم قال :

— وأمر الزعيم بسجن الفتاة الجميلة في أحد الأكواخ ..
عاشت أياما طويلة لا تخرج من سجنها .. وكان الزعيم يذهب
اليها أحيانا ويحاول أن يقنعها بأن تقاوم حبها .. ولكن .. لا ..
انها عنيدة في الحب .. لا تحاول أبدا أن تبرا منه .. وبدت عليها
تصرفات غريبة .. كانت تقضى أياما لا تتكلم .. ولا تأكل ..
ولا تشرب .. كأنها قررت أن تموت .. ثم فجأة تصحو يوما
وتبدأ في الصراخ .. تصرخ طول اليوم .. وتأكل بشراهة ..
كأنها قررت أن تحتفظ بحياتها من أجل حبها .. ويدخل اليها
أحد الشبان يوما لتحادثه في هدوء ، ويدو عليها أنها نسيت
حبها .. ونسيت عذابها .. ويدخل عليها نفس الشاب في يوم
آخر ، فتب صارخة فيه .. وتهجم عليه .. تمزق وجهه
بأظفارها .. وقلنا عنها انها جنت .. أصبحت الفتاة الجميلة ،
الطيبة ، الذكية .. مجنونة ..

وسكت الكاباكا ليبتلع ريقه .. وارفع نسيج بيندا الجالسة
في ركن الكوخ ملتفة بالوشاح الأحمر .. والتفتنا اليها جميعا ،
دون أن يتكلم أحد منا أو يتحرك من مكانه .. ثم عدنا براء وسنا
الى شفتى الكاباكا ..

واستطرد الكاباكا قائلاً وهو يمسخ دمة كبيرة سقطت من
عينيه :

واستطاعت المجنونة أن تفر من سجنها .. ثقت جدار
الكوخ بانظافرها .. وذهبت .. ذهبت على ألا تعود .. وعلمنا
بعد شهور طويلة أنها تسكن في كوخ على الشاطئ الآخر من
النهر .. عند سفح كوبالا .. في مكان خفى وسط الغابة ..
وعلمنا أيضا أنها تزوجت حبیبها الأبيض ، على الطريقة
الاسلامية .. ورغم أن زوجها أصبح غنيا بعد ذلك وجمع كثير
من الأموال .. الا أنها ظلت تسكن في هذا الكوخ .. وهو
يسكن المدينة .. ويتردد عليها سرا .. كان يخجل من أن يعرف
أحد أن زوجته زنجية ..

وقال سليم كأنه يريد أن يتأكد :

— تقول انها تزوجت على الطريقة الاسلامية ؟

ونظر اليه الكاباكا نظرة هائلة ، أخرسته .. ثم عاد يقول :

— وأصدر الزعيم أمره بتبرؤ القبيلة منها .. لم تعد احدى
بناتنا .. لم يعد من حقها العودة الى القرية .. ولم يعد واحد منا
يستطيع أن يبحث عنها ، أو يذهب اليها .. ولكن الزعيم نفسه
لم يتحمل الأمر الذى أصدره .. أصيب بالشلل .. مات جسده
.. ومات لسانه .. لم يعد يتحرك ، ولا يتكلم .. لم يعد فيه
الا عيان ييكى بهما أحيانا ، ويغضب بهما أحيانا .. وكان من
بين شبان القرية من لا يستطيع أن ينسى الفتاة الجميلة ،
الطيبة ، الذكية .. أجمل البنات ، وأطيبهن ، وأذكاهن .. فكان

يبحث دائماً عن أخبارها .. وقد مر عامان .. ثم علمنا أنها ولدت .. وضعت طفلاً لونه أبيض يميل إلى السمرة ..

وبعد ان وضعت الطفل بأسبوع واحد ، جاء زوجها الابيض وأخذ الطفل في غفلة منها .. واختفى هو والطفل .. سافر به الى وطنه الأصلي .. وجنت الفتاة الجميلة .. انتظرت الزوج والابن أياما .. ثم خرجت تبحث عنهما في المدينة الكبيرة .. وهي مجنونة .. كل ما فيها يدل على الجنون .. والناس يضحكون عليها .. ويترددونها من أمامهم .. ويضربونها اذا ألحت في السؤال .. وقبض عليها البوليس مرات ، وكانت تروى لهم قصتها فلا يصدقها أحد .. انها فقط مجنونة .. المسكينة .. وكان زعيم القبيلة قد مات في هذه الفترة ، وتولى عيره الزعامة .. وكان الزعيم الجديد يحب الفتاة الجميلة .. يحبها منذ كانت طفلة .. ربما احبها وهي لا تزال في بطن أمها .. فلم يطق أن يراها مشردة في شوارع المدينة .. تبيت على الأرصفة .. وتأكل البقايا التي تلقى في الشارع .. فأصدر أمره بالعفو عنها .. وأرسل من عاد بها الى القرية .. وبدأ يعالجه .. ويخفف من جنونها .. وبعد جهد كبير هدأته .. وكان هدوءاً غريباً .. ربما كان نوعاً آخر من الجنون .. ولكنها لم تنس أبداً ابنها .. ابنها الذي خطف منها .. ربما برئت من حب الزوج .. الزوج النذل الجبان .. ورغم ذلك فهو لم يكن أسوأ الأزواج البيض .. المهم كلهم يعتبرون الزواج من نباتنا مجرد متعة .. مجرد لهو .. مجرد تبدد لأوقات الفراغ .. لا أحد منهم يحترم هذا الزواج ..

لا أحد منهم يعترف بهذا الزواج بينه وبين نفسه .. انها مجرد متعة عابرة .. ثم يختفى .. حتى لو لم يسافر الى وطنه .. يكفي أن يخرج ولا يعود .. انهم يعتبرون بناتنا حيوانات .. وهم لا يحترمون زواجهم من الحيوانات ..
وزفر الكاباكا أنفاسا من السخط .. وأسقطت بيندا رأسها بين يديها تخفى دموعها .. وابتنم سليم ابتسامة صغيرة ساخرة ..

وعاد الكاباكا يقول :

— وبعد عام .. جاءت الفتاة الجميلة .. واسمحوا لى أن أستمر فى تسميتها بالفتاة الجميلة ، فانى لا أتصورها الا منذ كانت فتاة جميلة .. جاءت الى الزعيم الجديد وقالت له ان ابنها قد عاد الى باماكو ..

وسألها الزعيم فى دهشة :

— كيف عرفت ؟

قالت ونظرتها ثابتة :

— لا أدرى .. ولكنى متأكدة أنه عاد الى باماكو .. قلبى

يقول لى انه عاد .. وأنا أصدق قلبى ..

وذهب الزعيم بنفسه الى المدينة ليتأكد مما يقوله قلب الفتاة الجميلة .. وكان قلبها صادقا .. لقد عاد النذل الأبيض الى باماكو ، ومع زوجته من بنى وطنه .. زوجة بيضاء .. ومعها طفل .. وقال النذل لأهل باماكو ان الطفل طفله من زوجته البيضاء .. وأقص من عمره عدة شهور حتى لا يسأله أحد ،

كيف يكون ابنك من زوجتك ، وهو يبدو كأنه اكتمل عام من عمره ، وأنت لم يمر على زواجك أكثر من عام ؟ وكان لون الطفل يميل الى الاسمرار .

جمع الزعيم كل هذه المعلومات ، ثم عاد الى قريته وأبلغ الفتاة الجميلة بكل ما عرفه .. لم يخف عنها شيئا .. ثم سالها :
— ألا زلت تريدین زوجك ..

قالت وعيناها تلمعان كالبرق الغاضب :

— لا .. لا أريده .. أمقته .. أحترقه ..

وقال الزعيم :

— وتريدین الطفل ؟

قالت وقلب الأم في عينيها :

— نعم انه طفلى ..

قال :

— أتريدينه أن ينشأ في قريتنا .. وأبوه أبيض ..

قالت :

— نعم .. انه ابنى ..

قال :

— أليس من الخير أن يبقى مع أبيه ، ليجد حياة أفضل ،

ليتعلم .. ليصبح طبيبا .. ان المستقبل هناك أبيض ..

وسكتت الأم طويلا ثم قالت والدموع في عينيها :

— لابق مع أبيه . ولكن يجب أن أراه .. الى أمه ..

وقال الزعيم :

— أتريد أن يعرف الناس أنك أمه .. ويعرف الناس أنه
ماتيس ، من أم زوجة وأب أبيض .. ألا ترين كيف يعيش
الماتيس .. بلا أصل .. بل شعب .. بلا شخصية .. ألا تذكرين
كيف كنت أنت نفسك تحتقرين الماتيس ..

وسكنت الأم الجميلة .. اكتفت بدموعها .. ثم حلت الدموع
واثرت بها في كوخها .. ولم تعد تطالب بابنها .. ضحت بكل
حقها فيه من أجله .. ضحت بأمومتها .. بقلبها .. وقبلت أن
تقسم بالاله الأعظم ألا تبوح بسر ابنها .. ولكنها ظلت تصر
على أن تراه .. فكانت تذهب الى المدينة .. وتطوف بيت
النذل الأبيض ، الى أن ترى ابنها من بعيد .. وعند ما كبر
الابن وأصبح صبيا كانت تذهب الى حيث يلعب مع زملائه ،
وتحمل له الهدايا ، وتجلس معه وتحادثه .. وتعود فرحة ..
وكان أكثر ما يفرحها أن ترى ابنها يلعب مع الأطفال الزوج ..
انها تحس أنها لا تزال تعيش فيه .. تحس أن دماءها تجري في
عروقه .. تحس أنه سيبحث عنها يوما ما .. الى أن اكتشف
النذل الأبيض أنها تذهب وتجلس مع ابنها ، فأرسل اليها أحد
موظفيه يهددها .. ولم تعد تذهب الى ابنها ، لا خوفا من
التهديد ، ولكن خوفا عليه ..

وسكت الكاباكا ..

وأجهشت بيندا بالبكاء .. ورأسها منكس فوق صدرها ..
وشعرها مسدل فوق وجهها

ونظرت الى سليم كأنى أذكره بهذه المرأة التى قال لى انها كانت تذهب الى سامى فى صغره ، وتروى له أساطير الزوج .. وكان سليم شارد النظرات .. متهدج الأتفاس .. يضغط احدى يديه بالأخرى .. وينظر الى الكاباكا كأنه يقاوم انفجارا فى صدره ..

واعتدل الكاباكا فى جلسته .. ورفع رأسه ينظر الى السقف كأنه يستلهم السماء .. ثم عاد وألقى برأسه فوق صدره ، وقال فى صوت محشرج :

— هذه الفتاة الجميلة ، هى أختى .. وهى أم سامى .. وصرخت بيندا ، صرخة كبيرة .. ثم انتفضت ، وجرت نحو أبيها ، وألقت نفسها فوق صدره ، وارتفع نسيجها .. ولف الكاباكا ذراعه حولها ، وبكى معها .. وصاح سليم :

— هذا كذب ..

ونظر اليه الكاباكا نظرة قوية بخرت دموعه ، وصرخ فيه ؟ — اخرس ..

وانكمش سليم فى مقعده ، وتمتم فى جبن :

— أقصد أنه كلام يحتاج الى اثبات ..

وقال الكاباكا وبياض عينيه ينطلق كضوء البرق :

— الاثبات الوحيد ، هو انى أنا الذى أقول هذا الكلام ..

وظل مركزا عينيه على وجه سليم ، حتى أرخى سليم عينيه ،

ثم أدار رأسه الى ابنته ، واحتضنها في حنان ، وأخذ يربت على ظهرها بكفه ، قائلاً في صوت تخنقه الدموع :

— أنت تعلمين الآن لماذا كنت أعارض في زواجك من سامى .. ثم لماذا وافقت .. لعلك تصفحين عنى ..

وبقيت ساكناً الى أن هدأت الأنفاس من حولي قليلاً ، ثم قلت في لهجة الطبيب الهادئة ..

— وماذا جرى للفتاة الجميلة بعد ذلك ؟

وأزاح الكاباكا ابنته من فوق صدره ، وقال وهو يقوم واقفاً :

— أتريد أن تراها ..

قلت في دهشة :

— ألا تزال على قيد الحياة ..

قال :

— نعم .. تعال .. سترها الآن !

ثم نظر الى سليم من فوق قامته الطويلة ، وقال في تحد :

— تعال أنت أيضاً يا سليم .. تعال لترى زوجة أبيك !

- ٨ -

.. وحمل الكاباكا المصباح الصغير ، وتقدمنا خارجا من الكوخ الى ساحة القرية .. وبيندا تسير بجانبه ودموعها فوق خديها .. ووقف سليم مترددا وعيناه جاحظتان زائقتان .. وجذبتة من ذراعه جذبة خفيفة ، فمشى بجانبى صامتا ، وقد سقط رأسه من فوق عنقه وتدلى فوق صدره ..

وسرنا فى ساحة القرية بضع خطوات .. وكان المطر قد انقطع .. والطبول سكنت ، ولم يبق الا بضعة أفراد من الأهالى يتحركون فى الظلام كأنهم الأشباح ، وعيونهم البيضاء تبرىق أمام وجوهنا كأنها ثقوب فى الليل ..

ووقف الكاباكا أمام كوخ يبعد قليلا عن كوخه ، والنفت الينا صامتا .. ركز عينيه فوق وجه سليم ، ثم نقلهما الى وجهى .. ثم استدار لنا ، وأحنى رأسه ودخل الكوخ .. ودخلنا وراءه ..

كان الكوخ خاويا الا من سرير من فروع الشجر ، مكوم عليه شيء لا أستطيع أن أثبينه ، رغم ضوء المصباح الذى يحمله

الكاباكا .. وبجانب السرير صندوق خشبي صغير ، مزين
بالمسامير الملونة ..

ورفع الكاباكا المصباح فوق السرير ، وقال كأنه يبكي :
— هذه هي الفتاة الجميلة .. أجمل بنات السودان !
وصرخت بيندا :

— عمتى ..

ثم سقطت راکمة بجانب السرير ، ووضعت رأسها فوق
صدر المرأة وأخذت تبكي ، وتكلم بلغتها — لغة الولف —
كلمات سريعة ، وبصوت حاد رفيع ، له نفس الرنة التي نسمعها
في صوت الندابات عندنا ..
وتقدمت الى السرير ..

كان فوقه كومة من العظام السوداء .. ووجه مكرمش ،
ليس فيه قطعة نجت من التجاعيد .. خطوط كثيرة عميقة
متقاطعة ، تكون وجه امرأة عجوز ..
واقترب سليم من السرير في تردد ..

وألقى نظرة سريعة ، ثم تراجع وهو يشهق .. ولكنى
أمسكت به وهمست في أذنه :
— انظر اليها جيدا ..

وفتحت المرأة عينيها .. فباتت ملاحظها أكثر .. ان في عينيها
طيبة وهدوءا .. وابتسمت .. ابتسامتها ، لا تزال حلوة تمرح
فوق أسنانها البيضاء بين شفتين شققهما العمر والعذاب ..
ومدت يدا مرتعشة من العظام السوداء وأخذت تمسح على شعر



بيندا .. وشفتها تتحركان دون أن يخرج من بينهما صوت ..
واستطعت أن الملح الشبه الكبير بينها. وبين بيندا ..
وقال الكاباكا في صوت مرتعش :
— اله ضيف من مصر ، جاء يسلم عليك ..
ورفعت المرأة عينيها الى ، وعادت شفتها المشققتان
تتحركان فوق ابتسامتها ، دون أن يصدر من بينهما صوت ..
وقلت لها وأنا أحاول أن أبتسم :

— هذه مناسبة سعيدة .. لقد حدثني الكاباكا عنك كثيرا .
وهزت المرأة رأسها ، هزات متعبة ، ولكنها رشيقة كأنها
لا تزال تحتفظ بأنوثتها ورفقتها .. ثم أدارت عينيها حتى سقطتا
على وجه سليم .. ونظرت اليه طويلا .. ثم شهقت شهقة حادة ..
ومدت ذراعيها في الهواء كأنها تريد أن تصل اليه .. ولسانها
المشلول يتحرك في فمها ويصدر عنه صوت كالخوار الرفيع ..
ثم أسقطت ذراعيها .. وأخفت وجهها بكفيها ، وهي تمز رأسها
فوق وسادتها هزات عنيفة ، وتموء كالقطط ..

وهمست في أذن الكاباكا :

— هذا يكفي ..

ونظر الكاباكا الى أخته نظرة حزينة مشفقة ، ثم استدار
خارجا من الكوخ .. وخرجنا معه .. وتركنا ييندا تبكي بجانب
كومة العظام السوداء .. وسليم بجانبى يمسس في صوت
مخنوق :

— مستحيل .. مستحيل ..

وظل يردد كلمة « مستحيل » ، وصوته يرتفع شيئا فشيئا ،
حتى عدنا الى كوخ الكاباكا .. فصرخ :

— مستحيل !

ونظر اليه الكاباكا نظرة هائلة جامدة ، وقال له في هدوء :

— ما هو هذا المستحيل ؟

وقال سليم وهو يرتعش ..

— انها ليست زوجة أبى .. لا أستطيع أن أصدق ..

وقال الكاباكا في هدوء :

— صدق .. والنذل الأبيض الذى حدثتك عنه ، هو

أبوك !

وقلت للكاباكا حتى أقطع هذا النقاش الحاد :

— أظن أن ثيابنا قد جفت ..

ونظر الكاباكا الى سليم فى ازدياء ، ثم قال لى :

— سارى ..

ثم خرج من الباب الجانبي فى خطوات عصبية ..

وألقى سليم نفسه على مقعد ، وألقى رأسه بين يديه ، وهو

يهمس كأنه يبكى :

— لا بد أنى أحلم ..

وقلت له بصوت جاد حتى أشعره بأن هذا ليس وقت

النواح :

— هل هى نفس المرأة ؟

ورفع رأسه الى وقال فى حدة :

— أى امرأة ؟

قلت :

— المرأة التى كانت تذهب الى أخيك سامى فى صفه

وتروى له أساطير الزوج ..

قال وهو يدير رأسه عنى :

— لا أدري ..

قلت وكأنى أوّبه :

— أرجوك أن تساعدني .. تماسك ، حتى نستطيع أن
نصل الى نتيجة ..
قال دون أن يرفع رأسه الى :
— أظن أنها هي ..
قلت :
— ألسنت متأكدا ؟
قال وهو يزفر أنفاسه :
— متأكد .. انها هي ..
ثم انطلق صاخا :
— ولكن هذا لا يعنى أنها زوجة أبى ..
ولم أرد عليه ..

جلست على مقعد وأخذت أراجع فى ذهنى حالة سامى
النفسية .. ان حالته الآن واضحة بكل تفاصيلها ..
انه من أم زنجية وأب أبيض .. وقد سقطت هذه الحقيقة فى
عقله الباطن ، نتيجة تجاهلها .. ثم بدأ الصراع بين عقله الباطن
وعقله الواعى .. كل منهما يريد أن يسيطر عليه .. فاذا انتصر
العقل الباطن أصبحت لسامى شخصية زنجية .. واذا انتصر
العقل الواعى أصبحت له شخصية الرجل الأبيض .. والعقل
الباطن يعلم أن أمه هى هذه المرأة التى كانت تذهب اليه فى
صغره وتروى له أساطير الزنوج .. ولو استمرت هذه المرأة فى
الذهاب اليه. فربما استطاع العقل الباطن بمرور الأيام أن يلتقى مع
العقل الواعى حول حقيقة واحدة .. ولكن المرأة انقطعت عن

الذهاب اليه .. منعها أبوه .. فنسيها سامى .. وسقطت هي
الأخرى في العقل الباطن مع أصله الزنجى .. الى أن قابل بيندا ..
وكانت بيندا تشبه المرأة الأخرى .. تشبه أمه .. فأثارت رؤيتها
عقله الباطن .. وحركته .. ونصرته على عقله الواعى .. فأصبحت
تسيطر عليه شخصية الزنجى .. الى أن يبدأ العقل الباطن ،
فيعود ويسيطر عليه عقله الواعى .. عقله الأبيض !
هذه هي حالة سامى باختصار ..

كيف أصل الى علاجها ؟

ان المتبع في هذه الحالات أن أعقد جلسات مع المريض أتركه
فيها يتحدث عن نفسه ويحاول الفوص في عقله الباطن الى أن
يكشف سره بنفسه .. يكتشف عقده ..
ولكن هذه الطريقة — كما قلت — تتطلب شهورا طويلة ،
وأنا سأغادر باماكو بعد أيام ..
ليس أمامى الا الطريقة الأخرى في العلاج .. طريقة ..
الصدمة العصبية !

فكيف أصدمه .. صدمة عنيفة تقفز بعقله الباطن الى
مستوى عقله الواعى ..
وغرقت في أفكارى ..

ودخل الكاباكا يحمل ثيابنا وهو يقول :

— آسف .. ليس في الكوخ أحد الآن ليقوم بكيها ..
كلهم نيام .. وبيندا لم تعد من عند عمته ..
ورددت عليه بابتسامة صغيرة ..

وأخذنا أنا وسليم فبدل ثيابنا .. كل منا يخلع الجلباب الذي
أعطاه لنا الزعيم ، ويرتدى قميصه وبنطلونه .. وكلنا حاسمتون..
ثم اقتربت من الكاباكا وقلت له بصوت خفيض :
— ألم ير سامى هذه السيدة من قبل .. أقصد السيدة
أختك ..

قال وهو يهز رأسه :
— لا .. انه لا يعرف بوجودها .. ولا أعلن أن أحدا
حدثه عنها ..

مدحت يدي اليه مصافحا وقلت :
— آسف لازعاجك ..
قال وهو يشد على يدي وينظر في عيني :
— أرجو أن تنجح في علاج سامى .. انه ولد طيب ..
قلت كأنى أطمئنه :
— سأبذل جهدى ..
وعاد يقول قبل أن يترك يدي :
— هل هناك أمل ..
قلت :

— أمل كبير ..
وترك يدي .. ونظر الى سليم دون أن يد اليه يده .. وتردد
سليم ثم قرر ألا يد يده هو الآخر .. واكتفى بأن تنتم :
— مساء الخير ..

ولم يرد عليه الكاباكا .. ظل منتصبا بقامته الطويلة وسط

الكوخ ، وجلبابه الفضفاض الملون بخطوط صفراء وسوداء ،
ينسدل فوق جسده الأسود .. فيبدو وكأن القمر يشق الليل
باشعته الصفراء ..

وخرجنا من الكوخ ..

والكاباكا وراءنا ..

وفجأة طرأ على رأسي خاطر ، فالتفت الى الكاباكا وقلت له :

— هل أستطيع أن أرى بيندا ..

ونظر الى دهشة .. وقال متعجبا :

— بيندا ..

قلت :

— نعم .. سأراها لل دقيقة واحده .. انه أمر هام ..

وسكت الكاباكا برهة .. ثم خطا الى كوخ أخته .. وغاب

قليلا .. وسليم واقف بعيدا عنى يدق الأرض في ملل وضيق ..

وعاد الكاباكا معه بيندا ، وعيناه حمراوان في لون

وشاحها .. حرقتهما الدموع ..

وقلت لها في لهفة :

— سؤال آخر .. لو سمحت .. عندما كنت تذهبن الى

المدينة للبحث عن سامي .. هل كنت تمرين عليه في النهار ، أو

في الليل ..

وتنهدت وقالت في زهق كأنها ضاقت بكثرة أسئلتي :

— انه في النهار يكون في الدكان .. وكنت أخاف أن

أذهب اليه في الدكان .. وكنت أجده دائما في المساء ..

ثقوب في الثوب الأسود -

قلت :

— اسمعى .. غدا فى الساعة الثامنة تماما يجب أن تكونى على باب غرفتى فى الفندق .. ستجدين الباب مغلقا .. فانتظرى خلفه الى أن تدق الساعة الثامنة بالضبط .. ثم اقرى قهرة خفيفة على الباب .. وعندما أفتح لك .. ستجدين سامى معى فى الغرفة .. فلا تندهشى .. تقدمى كأن الأمر عادى .. هل فهمت ؟

قالت :

— لم أفهم ماذا تقصد ..

قلت :

— انى أحاول بهذه الطريقة أن أفيق سامى من حالته ..
قالت فى دهشة :

— وهل يفيق بهذه السهولة ؟

قلت :

— لا أدرى .. انها مجرد محاولة ..
ومددت يدى لها مصافحا وأنا أقول :
— سأنتظرك غدا ..

قالت :

— مهلا .. الى لا أستطيع أن أذهب اليك فى الفندق ..
قلت فى دهشة :

— لماذا ؟

قالت :

— غير مسموح للزوج أن يدخلوا هذا الفندق ..

قلت :

— سأعطى البواب أمرا بالسماح لك بالدخول ..

قالت :

— انه قانون ..

قلت :

— هناك وسائل كثيرة للتغلب على القانون ..

وتركتها وخطوت سريعا خارج القرية ، وسليم يلحق بى ..
وركبنا السيارة ، وأنا أفكر فى الصدمة التى أعدها لسامى ..
كانت هذه الصدمة تعتمد على ضبط سامى وهو فى حالة
انتقاله من شخصية الى أخرى .. أى فى نفس اللحظة التى يتم
فيها تحوله من شخصية الرجل الأبيض الى شخصية الرجل
الزنجى .. ففى هذه اللحظة يكون الصراع بين العقل الباطن
والعقل الواعى على أشده .. وتكون قوة كل منهما مساوية
للآخر .. وأى محاولة لمساعدة أحدهما قد تنصره على الآخر ..
ومهمتى هى أن أستغل هذه اللحظة لأساعد العقل الواعى حتى
يكشف سر العقل الباطن ، فيحل عقده ..

هذه هى الصدمة التى أعدتها لسامى .. وهو نوع من
الصددمات لا يزيد نسبة نجاحه عن عشرة فى المائة .. وأهم عيوبه
أن مجرد وجود الطبيب مع المريض ، قد يحول دون نشوب
الصراع بين العقل الواعى والعقل الباطن .. فالعقل الباطن هو
دائما عقل جبان يسكت ، ويختبئ ، بمجرد احساسه أنه محاصر ،
وأنه ليس متمكنا من فريسته ..

ولكن ..
الواقع أنى كنت فى حاجة الى صدمتين ، لاصدمة واحدة ..
صدمة لسامى ..
وصدمة لسامية ..
وبدأت أفكر خلال الطريق فى صدمة أخرى أعدها لسامية ،
وقد غابت عن عيني كل مناظر الغابة التى تمر بها ..
وقطع على سليم تفكيرى وقال بصوت نائه كأنه يعادى
نفسه :

— هل ستطلع سامى على كل شيء ؟
قلت وأنا أشد عقلى من التفكير فى سامية :
— المشكلة ليست فى اطلاعه .. ولكن فى الطريقة التى
نطلعه بها ..

قال وأصابه متشنجة فوق عجلة القيادة :
— قد يصدم عندما يعرف الحقيقة ، وتسوء حالته ..
قلت :

— انى أريده أن يصدم .. ولن تسوء حالته .
قال ولهجت اللبناية تلافمه :

— أنا لا أريده أن يعرف شيئا ..
قلت فى هدوء :

— من حقه أن يعرف ..
قال فى حدة :

- ومن حقى أن أحمى سمعة العائلة .. وسمعتى ..
وسمعة سامى نفسه ..
قلت :
- دع سامى يقرر ذلك ..
قال كأنه يصرخ :
- سامى مجنون لا يستطيع أن يقرر شيئا .. ثم الى
لا أريدك أن تتدخل فى حياتنا الى هذا الحد .. ومن حقى أن
أعفيك كطبيب من علاج أخى ..
قلت بنفس الهدوء :
- ليس هذا من حقك .. ان سامى ليس مجنونا حتى تعتبر
نفسك قيما عليه .. ان المريض النفسانى عندما يكون فى حالته
الطبيعية يعتبر انسانا كاملا القوى العقلية .. من حقه أن
يتصرف .. ومن حقه أن يختار طبيبه ..
ونظرت الى سليم نظرة جامدة واستطردت فى لهجة عتاب :
- انك انسان أنانى .. ولم أكن أعرف أنه يمكن أن تفصحى
بأخيك فى سبيل أفائيتك ..
وظل سليم ساكنا ، وأنفاسه متهدجة ، ثم اغرورقت عيناه
بالدموع .. وقال وعجلة القيادة تهتز فى يده :
- الى حائر يا دكتور .. انها مصيبة .. مصيبة ..
وابتسمت فى وجهه ، وقلت وأنا أربت على ظهره :
- اطمئن يا رجل .. وتأكد أن شفاء سامى فيه حل لكل
المشاكل ..

ومسح سليم دموعه وظل صامتا الى أن وصلنا الى الفندق ..
وقلت له وأنا أفتح « باب السيارة » ..

— أرجوك أن تبلغ سامي أنني أريد أن أراه غدا الساعة
السابعة في حجرتي بالفندق .. وأرجوك ألا تقول له شيئا مما
عرفناه .. أرجوك .. لو قلت شيئا لأفسدت كل شيء ..

وهز سليم رأسه موافقا ..
وهمت بالنزول من السيارة ، ولكنني عدت والتفت اليه
قائلا ، وفي رأسي فكرة جديدة :

— هل تحتفظ بالمجلات اللبنانية القديمة التي كانت تنشر
صور سامية ، وتكتب عنها كمطرية ..

ونظر الى في تعجب ، وقال :

— نعم .. انها في الدولاب ..

قلت :

— أرجوك أرسلها الى في الصباح الباكر ..

قال والدهشة تنطلق في عينيه ..

— لماذا ؟

قلت :

— ستعرف فيما بعد .. تصبح على خير .

وتركته .. وصعدت الى غرفتي .. ونظرت في الساعة .. انها
الثانية صباحا .

وبدأت أخلع ثيابي وأنا أكاد أسقط من التعب .. وخوف

كبير يلاً صدرى .. خوف من أن يفسد سليم خطتى ويطلع
سامى على الحقيقة ..
وكان تمبى أكبر من خوفى ..
نمت ..



وقمت من لومى فى الساعة الثامنة صباحا على صوت طرقات
مهذبة على بابى .. وكان خادم الفندق يعمل لى مطروفا كبير ..
وقال لى ان شخصا قد تركه للبواب وطلب توصيله الى فى الحال
.. حتى لو كنت نائما ا
وفتحت المظروف ..
وابتسمت فى راحة ..

كان المظروف من سليم .. وكان يضم الجرائد والمجلات
البنائية التى كتبت عن سامية ونشرت صورها .. وكانت
إبتهامتى لأن ارسال هذا المظروف الى ، كان دليلا على أن
سليم قد قرر بينه وبين نفسه أن يساعدنى فى علاج أخته وأخيه ،
وأله لن يفسد خطتى ..

وبدأت أقلب فى الصحف والمجلات القديمة .. ان تاريخها
يرجع الى عام ١٩٣٦ ، وسامية تبدو فى صورتها ، فى العاشرة من
عمرها .. هزيلة .. صفراء .. ولكن فى عينيها حيوية دافقة ..
وترتدى زيا غاليا ، وتضع فى معصمها سوارا من الماس لا تلبسه
بنت فى عمرها .. انما يدل على ثراء أبيها ، وعلى تباهيه بثروته ،

وعلى فساد ذوقه .. ومكتوب فوق الصورة عنوان كبير « مطربة افريقيا » ، ومكتوب تحتها أن الأنسة الصغيرة سامية الداعوق كريمة المهاجر والأديب المعروف سامح الداعوق ، قد غنت في الحفلة التي أقيمت في زحلة لتكريم أبيها ، فادهشت السامعين بتعريدها العذب .. و .. و .. وكلام كثير في جميع هذه الصحف والمجلات عن الموهبة المبكرة ، والبرعم المتفتح ، والفن الأصيل .. ولا غرو ، فهي فتاة بنت فنان .. الى آخر هذا التفاق الذي تجيده المجلات اللبنانية التي تصدر خصيصا لابتزاز أموال المهاجرين .

ورأيت صورة الأب ، السيد سامح الداعوق .. انه أقرب شتبا الى سليم منه الى سامى .. ولكن وجهه أكثر اعتدادا ، وعينه أكثر حدة .. وله شارب مرفوع .. ويضع على رأسه طربوشا طويلا ، ويمسك في يده بعضا ، لها يد من ذهب ، وفي أصبعه خاتم من الماس .. والغرور ينطق من وجهه .. غرور يكاد يكون جنونا .. وكلام كثير عن عبقرية السيد الوالد .. وعنوان كبير « أمير شعراء المهجر » .. ثم قصيدة من شعره ..

وقرأت القصيدة ، انه ليس شعرا .. انه قطع من الحجارة والطوب مرصوفة بعضها ببجائب بعض ، في شكل كلمات .. كلمات تنقصها الرقة ، وينقصها المعنى ، وينقصها الوزن .. ولا أدري لماذا كان يصمم الوالد على أن يكون شاعرا .. ربما لأن المجتمع الضيق المعزول الذي يعيش فيه المهاجرون الى افريقيا ، يجعلهم يحاولون أن ينفسوا عن أنفسهم في هواية فنية ..

تخفف من ضغط العزلة والنسيان على نفوسهم .. وغالبا ماتكون
 هذه الهواية مجرد خيال ، ليس لها واقع فنى .. فيتخيل أحدهم
 أنه شاعر ، ويتخيل الآخر أنه مطرب ، ويتخيل ثالث أنه ممثل ،
 ويتخيل رابع انه أحسن من يعزف على البيانو فى العالم ..
 وهكذا .. وربما حاول السيد الوالد فى صغره ، أن يكتب الشعر
 تنفيسا عن ضيقه ، ثم لما أصبح غنيا ، مليونيرا ، حاول ان يفرض
 شعره على الناس بنقوده .. حاول أن يشتري المعجبين به بالمال ،
 كما تعود أن يشتري كل شيء .. فأعقد على أصحاب المجلات
 اللبنانية .. وهو مقتنع بينه وبين نفسه أنه شاعر أصيل .

وانتهيت من قراءة المجلات ، ووضعتها على المائدة ،
 وتعمدت أن أضغ العدد الذى يحمل صورة سانية على رأسها ..
 وارديت ثيابى ، وتناولت افطاري فى الغرفة ، ثم أبلغت
 البواب ، أن يدع أى فتاة تسأل عنى ، تصعد الى غرفتى فورا ..
 كنت منتظرا سامية ..

لم يكن بينى وبينها موعد ، ولكنى كنت واثقا أنها ستأتى
 لزيارتى .. لقد جاءت أمس للاتفاق معى على موعد سفرنا الى
 لبنان ، ولم تجدنى .. وربما خيل اليها أنى سافرت وحدى ،
 وانى تخلّيت عنها .. ولكنها ستأتى اليوم أيضا .. وأيضا لتتفق
 معى على السفر الى لبنان .

والواقع النفسى لسامية يدل على أن الدافع الحقيقى الذى
 يدفعها الى زيارتى ليس هو السفر الى لبنان .. ولكنها تحس فى
 أعماقها أنها فى حاجة الى .. فى حاجة الى مساعدتى .. ولكنها

لا تستطيع أن تعرف سر هذه الحاجة .. لا تستطيع أن تبررها ،
لأنها لا تعرف أنها مريضة .. وأنها في حاجة الى كطبيب .. قتلجاً
الى تبرير حاجتها الى ، بما يليه عليها عقلها الباطن .. وهو حاجتها
الى السفر الى لبنان !

والواقع النفسى لسامية يدل أيضاً ، على أنها ليست في
حاجة الى السفر الى لبنان .. ولكن لبنان يمثل لها الفترة التى
قضتها تعيش فى حلمها الكبير ، بأن تكون مطربة ذائعة الصيت ..
هذا الحلم الذى غذاه أبوها حتى صوره لها كحقيقة تعيش فيها
.. ولكنها لا تستطيع أن تواجه هذا الحلم الآن ، بعد أن ضغط
أخوها سليم فى عقلها الباطن بقسوته ، وبضربها .. كل ما تستطيع
أن تواجهه هو رغبتها فى زيارة لبنان .

هذا هو الواقع النفسى لسامية ..

وطال انتظارى لها ، حتى كدت أياس ..

وفى الساعة العاشرة والنصف ، سمعت طرقات على بابى ..
طرقات مترددة هزيلة ..

وفتحت ..

سامية على الباب ..

أكثر هزلاً واصفراراً ..

واستقبلتها مبتسماً ، متعمداً أن أبدو فرحاً بلقائهما ، وقلت
كعادتى ، وأنا أجمع كل أعصابى وكل ذهنى :

— أهلاً سامية ..

ودخلت مترددة ، وهى تتلفت فى أرجاء الغرفة ، كأنها
تخاف أن يضبطها أحد ، ثم قالت هامسة :
— صباح الخير ..
وقلت بلا مقدمات وأنا أرفع صوتى لأبدو أكثر فرحا :
— ان صورتك منشورة فى الصحف ..
لم اقل صحف اليوم ، ولا صحف خمسة عشر عاما مضت .
وبهتت سامية ..
وقفت كأنها تسمرت فى الأرض .. وعيناها مفتوحتان ..
وفكها الأسفل ساقط من وجهها .
ولم تتكلم .. فقط تنظر الى بهاتين العينين المفتوحتين ..
وصحت مرة ثانية محتفظا بلهجتى المرحية :
— لماذا أخفيت عنى أنك مطربة .. انك تعنين ..
وقالت فى صوت متحشرج ، كأن صوتها يخرج من حلقها
دون أن يمر بشفتيها ..
— مطربة .. أغنى .. مطربة .. مطربة ..
وقلت وأنا ألتقط الجريدة القديمة من فوق المائدة ، دون أن
أبدى اهتمامى بالحالة التى تعانها ..
— انظرى .. انك جميلة فى الصورة ..
لم أقل انها « كانت » جميلة .. لم أحاول أن أشعرها أنى
أتحدث عن شىء مضى ..
ونظرت سامية الى صورتها .. نظرت طويلا .. ووجهها
يزداد اصفرارا .. وأنفاسها تنهدج .. ثم بعد قليل .. وهى

لا تزال ممسكة بالجريدة تنظر فيها الى صورتها .. ابتسمت ..
واتسعت ابتسامتها .. ثم شددت قامتها .. ورفعت رأسها ..
واستقرت نظراتها .. وضمت شفتيها .. ثم خفضت ذراعها الذي
يحمل الجريدة .. ونظرت الى نظرة متعالية ، كأنها تنظر الى من
فوق المسرح .. وقالت في صوت حالم :

— لقد صفق لى الناس طويلا .. وقذفتنى احدى السيدات
بوردة .. وكان الرجال يطلقون الرصاص فى الهواء ، ويصيحون
.. لعيون سامية .. وجاء الخواجه سركيس صاحب مطعم زحلة ،
وتوسل الى أبى أن يسمح لى بالغناء كل ليلة .. وقال انه
سيتعاقد معى .. و ..

وامتمرت سامية تروى كل التفاصيل كبيرة وصغيرة عن
نجاحها فى حفلة زحلة .. وقد سبق لها أن حدثتني عن هذه
الحفلة بالذات عند ما كانت تتحدث عن أبيها ، ولكنها لم تذكر
شيئا عن نفسها .. لم تذكر لى أنها غنت .. وأن الناس صفقوا
لها .. وأن الجرائد نشرت صورتها .
وابتسمت وأنا أحمد الله ..

لقد نجحت خطتى ، التى بنيتها على مفاجأة سامية بصورتها
المنشورة فى الصحف .. نجحت فى اعادتها الى عملها الكبير ..
الى الحقيقة الوهمية التى كانت تعيش فيها .. ولكنه نجاح
جزئى .. نجاح فى حل جزء من العقدة المركبة التى تعانىها
سامية .. فقد كان يجب أولا .. اعادتها الى حلمها الكبير ..
ثم بعد ذلك افافتها من هذا الحلم ..

وسامية لا تزال تتحدث عن تفاصيل حفلة زحلة .. ثم فجأة
سدت قبل أن تتم كلامها . وجحظت عيناها .. وانطلقت منهما
نظرات خائفة .. وسقط فكها الأسفل مرة ثانية .. ثم سقطت
الجريدة من يدها على الأرض .. و .. صرخت .. صرخات حادة
متتالية ..

وفي الحال أخذت أصفق بيدي ..

وسامية تصرخ ..

وأنا أصفق ، وأحاول أن يعلو صوت تصفيقي على صوت
صراخها ..

ثم بدأت أصيح وأنا مستمر في التصفيق ، وهي مستمرة في
الصراخ :

— غنى يا سامية .. غنى .. أسمعيني صوتك .. لا تسكتي
.. غنى .. أم كلثوم تغني بمجرد أن أطلب منها أن تغني ..
وهي لا تزال تصرخ .. وتراجع من أمامي .. وتراجع ..
واصطدمت ساقها بحافة السرير فسقطت جالسة عليه ..

وقلت أريد أن أصدمها بمفاجأة أخرى :

— غنى يا سامية .. سليم لن يضربك .. لقد تعهد لي ألا
يضربك .. انه معجب بصوتك .

وبسكتت عن الصراخ فجأة ..

ونظرت الى في شك مجنون .. ثم انطلق منها هذا الصوت
المتحشرج الذي لا يمر بشفتيها ورددت :

— سليم لن يضربني .. لن يضربني .. سليم لن يضربني ..

ثم ابتسمت ..

واستقرت ابتسامتها فوق شفتيها .. ثم أغمضت عينيها ..
وسقط كل جسدها على السرير ..
ونامت ..

او اغمى عليها من عنف المعركة النفسية التي اجتازتها في
هذه اللحظات ..

وفد كنت أعرف لماذا بدأت سامية في الصراخ .. لقد
صرخت عند ما انتقل بها عقلها الباطن فجأة من المرحلة التي
كانت تغنى فيها ، الى المرحلة التي بدا فيها سليم يضربها بقسوة
حتى تكف عن الغناء .. اختفت من عينيها صورة الجمهور الذي
يصفق لها ، وارتفعت صورة صفعات سليم .. وقد صفقت لها
في هذه اللحظة حتى أساعدها على الاعتقاد بأن ما تراه أمام
عينيها ليس صفعا ، ولكنه تصفيق .. وكان يساعدني على نجاح
هذه الفكرة ، أنها في الواقع لا تحس بالام الصفع ، انما كل
ما تحس به هو صورة ايد تتحرك بالصفعات .. وهى تقريبا
نفس حركات التصفيق .. وكنت بذلك أحاول أن أساعد عقلها
الواعى على أن يغلب عقلها الباطن ، ويتحرر من الخوف ..
وعند ما فاجأتها بقولى « سليم لن يضربك » ، كنت أحاول أن
أكون أنا صوت عقلها الواعى .. ولأنها تجهل أنى أعرف أن
سليم كان يضربها ، فكان من السهل عليها أن تستسلم بعقلها
الواعى الى ..
ونجحت الخطة ..

ولكنها نامت ، أو أغمي عليها ، وكان أكثر ما أخافه أن
تفيق من نومها وهى فى نفس الحالة التى كانت عليها .. يهرب
منها حلمها الكبير .. وتضغطه فى عقلها الباطن تحت ضغط
صفعات سليم ..

ورفعت جسدها كله فوق السرير ، وغطيتها بالملاءة البيضاء
.. ثم استدعت خادم الفندق ، وأمرته أن يستقل سيارة أجرة
ويذهب الى دكان سليم ويستدعيه حالا الى ..
وأعطيت الخادم بقشيشا كبيرا ..

وجلست أفكر فى صدمة ثلاثة أفيق بها سامية من حلمها
الكبير .. وأدفع شخصيتها الى النمو الطبيعى ، حتى تترك عمر
العاشرة ، الذى لا تزال تعيش فيه ، وتنتقل الى عسرها الحقيقى
.. عمر الثالثة والعشرين ..

وجاء سامى .. ودخل غرفتى مهرولا .. وسقطت عيناه على
أخته الراقدة على السرير ، وصرخ فى لهفة حقيقية :
— ماذا حدث لها ؟

قلت فى هدوء أرطب به لهفته :
— لا شئ .. مجرد اغماء بسيط ..
قال :

— متى أغمي عليها .. ولماذا .. ماذا فعلت بها ..
قلت فى هدوء :

— دعك من هذا الآن ..

ثم بدأت أحلل له حالة سامية تحليلا بسيطا حتى يستطيع

أن يفهمه .. وأكدت له أنه لم يبق الا خطوة واحدة ، ويتم لها
الشفاء ..

ثم قلت له وأنا أنظر في عينيه ..
— أليس في باماكو تخت موسيقى شرقية ؟
قال في دهشة :
— لماذا ؟

قلت :
— حتى تغنى سامية بمصاحبه .. اننا سنقيم حفلا غنائيا ا
وانطلق سليم بلهجة اللبنانية صارخا :
— يخرب بيتك .. شو بتعمل فيها .. ان صوتها العن من
مواء القطط ..

قلت في هدوء وأنا أبتسم :
— أعرف .. ولكن هذه هي الطريقة الوحيدة التى أراها
أمامى ..
قال :

— انك ستفضحننا في كل البلد ..
قلت :

— لا تقل للمدعوين أن سامية ستغنى .. قل لهم انك فقط
تدعوهم الى حفل موسيقى .
قال :

— مستحيل .. مستحيل .. هذه نهاية سمعتنا ..
قلت وأنا أمسك بيده :

— أرجوك يا سليم .. ساعدني .. لا يمكن أن تكون أقل
اهتماما بشفاء أختك مني ..

ونكس سليم رأسه .. وسكت طويلا .. ثم أخرج مندبلا
وأخذ يمسح به العرق المتصبب على وجهه .. ثم قال وهو لا ينتظر
الى :

— ان عندنا بعض المهاجرين يجيدون العزف .. واحد
يعزف على الكمان .. وآخر يعزف على العود .. وثالث على
القانون .. والرق .. و ..

وقاطعته :

— هذا يكفي .. متى سنقيم الحفل ؟

قال وكأنه سلم أمره لى والله :

— كما تشاء ..

قلت :

— غدا مساء ..

وهز رأسه موافقا ، واستطردت قائلا :

— هناك شيء آخر .. ان سامية ستفريق الآن وهي تذكر
كل شيء عن أيامها عند ما كانت تغني .. الأيام التي كان أبوها
يقنعها خلالها بأنها مطربة كبيرة .. وأريدك أن تعاملها على أنها
فعلا مطربة كبيرة .. وكأنها لا تزال في عمر العاشرة .. واعتذر
لها عن ضربك لها .. اعتذر لها كأنك ضربتها أمس فقط ..
واقنعها أنك معجب بصونها .. وكل ما هنالك أنك كنت عصيبا
عند ما ضربتها ، وأن سر عصبيتك هو سوء حالة العائلة المالية .

ثقبوب في النوب الأسود ١٩٣٠

ورفع سليم عينيه الى ، ثم عاد وخفضهما وقال هامسا :
— حاضر ..

وقمت من مكاني ، وفتحت حقيبتى الطبية ، وأعددت حقنة
منشطة حقنت بها سامية ، ثم قربت من أنفها قطعة مغموسة في
الأيثر ..

وبعد قليل أفاقت ..

واحتضنها سليم وهي تقوم من الفراش وقال في خنان
كبير :

— تعالى نعود الى البيت يا سامية ..

وسارت مرتكئة عليه .. هزيلة .. صفراء .. وذراعه حول
خصرها .. وقبل أن يخرجها ، قلت لسليم وأنا ابتسم له ابتسامة
مشجعة :

— هل اتفقت مع سامى أن يمر على فى الساعة السابعة ؟
قال :

— نعم .. سيأتى اليك !

وخرج محتضنا أخته .. وقلبي يتمزق عليه وعليها ..

وتركت غرفتى ، ونزلت الى قاعة الطعام لاتناول غدائى ،
ومررت على بواب الفندق ، وقلت له ، وأنا أضع يدي فى
جيبي :

— هناك فتاة زنجية ستسأل عنى هنا فى الساعة الثامنة ..
أرجوك دعها تصعد الى غرفتى بمجرد حضورها ..
ورفع بواب الفندق حاجبيه وقال فى اصرار :
— مستحيل يا دكتور .. هذا ممنوع .. هذا قانون ..
وأخرجت يدي من جيبى وفيها خمسة آلاف فرقك ، أى
حوالى خمسة جنيهات ، ودستها فى يد البواب :
— أرجوك .. حاول .. انها مسألة هامة .
وتقلصت أصابع البواب فوق النقود ، وقال وهو يتسم
ابتسامة خبيثة :
— سأحاول ..

— ٩ —

في حوالى الساعة السابعة دخل سامى الى غرفتى ،
وصافحني دون أن يرفع عينيه الى .. كان يسدو منهكا ، باهت
اللون ، كأنه قضى لياليه أرقا .. وكانت على وجهه علامات
تفكير عميق .. وفي عينيه حيرة أجهده ..
وفاجأته قائلا ، بمجرد أن أجلس على المقعد الكبير الذى
يتوسط الحجرة :

— لقد عرفت الكثير عن طفولتك ..

ورفع الى رأسه فى هدوء ، ونظر الى وبين شفثيه ابتسامة
ساخرة وقال :

— ماذا عرفت ؟

قلت وأنا أسجل فى ذاكرتى كل خليجة ترسم على وجهه :

— عرفت أنك كنت تلعب مع الأطفال الزوج ..

وارتعشت رموشه فوق عينيه ، ثم جمع أصابعه فى قبضته
محاولا أن يضغط على أعصابه حتى يحتفظ بهدوئه .. ثم قال
وهو يميل بظهره على مسند المقعد :

— كنت أضربهم ..



قلت بسرعة :

— وكنت تحمل اليهم الحلوى والشيكولاته ..
ونظر الى في دهشة كأنه يتعجب من أين جمعت هذه
المعلومات .. ولم يرد على ..

واستطردت قائلاً بلهجة عادية وكل عيني فوق وجهه :
— وكانت تأتي اليك سيدة زنجية تجلس معك وتروى لك
أساطير الزنوج ..

واعتدل في جلسته ، ونظر الى بعينين مفتوحتين وقال
متسائلاً :

— سيدة زنجية؟! ..

قلت :

— نعم ..

وعقد ما بين حاجبيه كأنه يحاول أن يتذكر ، ثم قال بلا
مبالاة :

— لا أذكر

قلت في هدوء ..

— حاول أن تذكر ..

قال والعجب يشتد في عينيه :

— لماذا أحاول أن أتذكر؟! ..

قلت وأنا أنظر اليه نظرات ثابتة :

— لأنني أريدك أن تذكر ..

وقال في حدة ووجهه يحترق :

— لماذا .. وما سر تفتيشك في حياتي ؛ واصرارك على أن تعرف كل يوم من أيامي .. اني أحس بجو غريب يحيط بي منذ عرفتك .. أحس كأن هناك مؤامرة تدبر ضدي .. قلت في هدوء .

— هناك ناس يحاولون مساعدتك .. وصرخ وهو يعتدل في جلسته :
— مساعدتي في ماذا .. ومن الذى طلب منهم أن يساعدوني .. لماذا .. لماذا كل هذا الجو الغريب ؟
قلت وأنا أكثر هدوءا :

— لأنك مريض .. وانتفض رأسه فوق عنقه ، واصفر وجهه وقال وقد بدت شفتاه أكثر جفافا :
— أنا لست مريضا .. قلت في اصرار :

— أنت مريض .. وتعلم أنك مريض .. قال في حدة وقد بدأت معركة هائلة تشب في نفسه ، يحاول أن يهرب منها فلا يستطيع :
— مريض بماذا ؟ .. . قلت محتفظا بهدوئى :

— مرض اسمه ازدواج الشخصية .. قال وهو يدير عينيه عنى ، وظهره يسقط فوق مسند المقعد : .

— ماذا يعنى هذا ؟ ..

قلت فى بساطة :

— أتذكر يوم قال لك أخوك سليم انك كنت فى الغابة ..

لقد كنت أنا معه .. ورأيتك هناك ترقص مع الزوج ..

قال فى صوت كالصراخ :

— أنا لم أكن فى الغابة .. ولم أرقص عمرى مع الزوج ..

انى أحترهم .. وأنت واهم كأخى سليم ..

قلت وعيناي لا تزالان فوق وجهه :

— انى أعرف انك لا تدري انك كنت هناك .. لو كنت

تدري ، لما كنت مريضا ..

قال صارخا :

— لا تقل انى مريض ..

ثم سكت .. ومال رأسه فوق مسند المقعد .. وبدأت

أنفاسه تتهدج .. ووجهه يزداد اصفرارا ..

وطالت فترة سكوته ..

وأنا ساكت بجانبه .. وكنت أعلم أنه فى فترة سكوته

يخوض المعركة .. معركة يثيرها عقله الواعى ليكشف سر عقله

الباطن ..

وأخيرا قال كأنه يخاطب نفسه :

— كل ما أحس به أن هناك أشياء تحدث لى ولا

أذكرها .. أحس كأن هذه الأشياء اختفت خلف ضباب ..

وأحاول أن أخترق الضباب فلا أستطيع ..

قلت كآنى لم أسمعہ :

— هل تذكر المرأة الزنجية التى كانت تجلس معك فى
صغرك وتروى لك أساطير الزوج ؟ ..
وجحظت عيناه أمامه كأنه يمدحها ليخترق بهما الضباب ،
ثم قال :

— لا .. لا أذكر .. هذه المرأة ليست فى حياتى ..
قلت :

— انها فى حياتك .. انها أهم شئ فى حياتك ..
قال فى اصرار ..
— لا أذكرها ..
قلت :

— حاول .. انك تستطيع أن تذكرها ..
وقطب حاجبيه ، ومسح العرق من فوق وجهه بكفه يده ،
وقال كأنه يبكى :
— لا أستطيع .. لا أستطيع ..
قلت :

— أتذكر قصة الملك الزنجى سوتديانا ...
ولوى عنقه الى :
— ما دخل قصة سوتديانا الآن .. انك تحيرنى .. انك
تعذبنى ..
قلت بسرعة :

— هل تذكر متى سمعت هذه القصة ؟ ..

قال :

— انى أسمعها دائما .. انها قصة معروفة ومكتوبة فى كل الكتب التى كتبها الفرنسيون عن تاريخ دولة مالى ..
قلت :

— ولكنك لم تقرأها .. لقد سمعتها .. وكنت صبييا صغيرا ، وكنت تلعب فى الساحة المتربة مع الأطفال الزوج .. وكانت تأتى اليك امرأة زنجية متوسطة العمر .. جميلة .. جميلة جدا .. وتجلس فى طرف الساحة المتربة فى ظل شجرة سنط .. وتناديك إليها .. فتذهب إليها فرحا .. وتجلس بجانبها على الأرض رغم ثيابك النظيفة الأنيقة .. فتعطيك بعض اللعب الصغيرة .. لعب من التى يلعب بها الأطفال الزوج .. ثم كانت تروى لك حكايات .. حكاية الملك سوتديانا .. ثم تنصرف عنك .. وقد كنت تحب هذه المرأة .. تحبها دون أن تدرك سبب حبك لها .. ثم لم تعد المرأة تأتى .. وانتظرتها طويلا .. كنت تنتظرها كل يوم .. ثم بدأت تنساها .. اختفت فى عقلك الباطن ..

وكان سامى يتنفس خلال كلامى بصعوبة .. وعيناه هائمتان أمامه والعرق يزداد تصببا على وجهه .. وأصابه متشنجة فوق مسندى المقعد .. ويفوص فى جلسته كأنه يحاول أن يختبئ من شئ .. ثم همس فى صوت كالخوار .. صوت ينطلق من داخله ، كأن شخصا آخر يعيش فى معدته :

— لا أذكر .. لا أذكر ..

قلت فى بساطة الحقيقة :

— انك تذكرها جيدا .. تذكرها لا بذاكرتك .. بل
بأعماقك .. بل انك لا زلت تبحث عنها .. أعماقك تبحث عنها ..
وقد رأيتها .. وتتبعها .. رأيتها منذ مدة قريبة .. لقد كنت معها
منذ ليلتين ..

وقال وصوت الحوار يصطدم بأنفاسه المتهدجة :
— أنا .. أنا .. مستحيل .. لماذا أبحث عنها ..
قلت في هدوء يحمل قوة المفاجأة .. قوة الصدمة :
— لأنها أمك ..

وقفز صارخا صرخة مجنونة :
— أنت مجنون .. أمي ماتت .. ماتت ..
قلت :

— لم تكن أمك التي ماتت ..
قال :

— أنت مجنون .. أنت تكذب ..

قلت وصوتي الهادي يرن في وسط صراخه ، وعيناي
مركزتان في عينيه كالنمل على النار ..
— أنت تعلم أنني أقول الحقيقة .. شيء في نفسك يعلم أن
هذه هي الحقيقة .. حاول أن تواجه الحقيقة .. حاول أن تصل
إلى هذا الشيء .. انك الآن تشك في الحقيقة .. انك لست متأكدا
من أنني كاذب .. ولكنك فقط تشك في الحقيقة .. أريدك أن
تجتاز مرحلة الشك .. يجب أن تجتازها ..

وصرخ بأعلى صوته وعيناه متسعتان على آخرهما ، حتى
أصبح كل وجهه عيان ..

— أنت مجنون .. وتريد أن تجننى ..

ثم رفع مقعدا صغيرا وقذفني به وهو لا يزال يصرخ :

— لا تجننى .. لا تجننى ..

ووجهه يرتعش .. والخلجة التي فوق شفته العليا أشد
ارتعاشا حتى تكاد تنخلع من وجهه .. وعيناه المخيفتان فيهما
لمعان قوى .. لمعان أقرب الى لمعان الجنون ..

وكنت متعودا على هذه الحالات التي يتقلب فيها الجنون
الهاديء الى جنون عنيف .. وتعلمت بالمران كيف أتجنب ثورة
مرضى ، فتجنبت بسرعة المقعد الذي قذفني به .. وعدت أنظر
الى وجهه فى هدوء ..

واتبته سامى على صوت اصطدام المقعد الذى قذف به ..
وتسمر فى وقفته .. يبخلق فى المقعد الملقى على الأرض .. ثم
يبخلق فى وجهى .. وأنفاسه لا تزال تهدهج ..

وخفت أن يهدأ ..

والقيت نظرة سريعة على ساعتى ..

انها الثامنة بالضبط ..

وقلت لسامى وأنا أحاول أن أثيرة أكثر :

— انك سترها الآن ..

قال ، ولعابه يخرج كرهاوى الصابون فوق شفتيه ، من
شدة تهدهج أنفاسه :

— من ؟ ..

فقلت فى هدوء :

— أمك ..

وهم أن يصرخ من جديد .. وصوت الخوار ينطلق من تحت
لسانه بلا كلام ..

وفى هذه اللحظة سمعت نقرة خفيفة على باب غرفتى ..
ونظرت الى الباب ، فلمحت ظل قدمين صغيرتين تطلان من
تحت ..

وقلت لسامى فى هدوء :

— لو فتحت الباب الآن سترها ..

ولم يكن سامى قد سمع النقرة على بابى .. فاحتبست
صرخته .. ونظر الى فى ذهول يثير الشفقة ، وقال كالتائه وهو
يتلفت حوله :

— أى باب ؟ ..

قلت :

— باب الغرفة ..

وظل فى مكانه ينظر الى فى ذهول ..

وعدت أقول له فى لهجة فيها رلة السيطرة .. سيطرتى على
شخصيته :

— تحرك .. افتح الباب ا ..

ولم يتحرك ..

فجذبته من ذراعه فى قوة ولكن بلا عنف ، وأنا أقول له :

— افتح الباب .. لأملك ..
ونظر سامى الى الباب .. ثم عاد ينظر الى كأنه يستغيث
بى ..

وقلت له فى حدة :
— افتح الباب .. لتتأكد بنفسك أنها أملك .
ومد سامى يدا مرتعشة ، يزداد ارتعاشها كلما اقتربت من
الباب .. وأنفاسه تزداد تهديجا ..
ثم مرة واحدة .. فتح الباب ..
ورأى بيندا واقفة أمامه تبتسم ..
وترجع الى الوراء ..
والحلجة فوق شفته العليا تزداد ارتعاشا .. والعرق يتفصد
من كل قطعة فى وجهه ..

وظل يتراجع ..
وكانت هذه هى أهم لحظة .. اللحظة التى ينتقل فيها سامى
من شخصية الرجل الأبيض الى شخصية الرجل الزلجى ..
كانت هذه هى اللحظة الوحيدة التى أستطيع أن أستغلها
لأساعد عقله الواعى على اكتشاف عقله الباطن ..
واقتربت منه وأنا أنظر اليه بكل عيني ، وقلت له فى صوت
أضع فيه كل مالى من قوة تأثير :

— انظر اليها جيدا .. لا ترفع عينيك عنها .. انها تشبه
المرأة الأخرى .. المرأة التى كنت تراها فى صفرك .. انها تكاد
تكون هى .. انظر اليها .. لا تفقد سيطرتك على نفسك .. انك

الآن تذكر المرأة الأخرى .. انها تشبه هذه الفتاة .. نفس العينين .. والشفقتين .. ونفس الابتسامة .. ونفس اللون .. و ..

وسامى يتراجع من أمام بيندا .. وكان تراجعها دليلا على أن عقله الواعى لم يذب بعد أمام عقله الباطن .. وظل يتراجع .. وهو يتخبط فى قطع الأثاث .. ويكاد يقع فوق كل قطعة .. وكله يرتعش .. خطوانه ترتعش .. يدها ترتعشان .. وجهه يرتعش .. وأنا لا أكف عن الكلام .. أتكلم باستمرار ، مخاطبا عقله الواعى ، حتى أنصره على عقله الباطن .. ثم سقط سامى فوق المقعد الكبير .. وأمال رأسه الى الوراء .. وأغمض عينيه .. وأنفاسه تنهدج .. وعرقه يتصبب ..
انه ليس نائما ..

وليس مغنى عليه ..

وأنا واقف أنظر اليه بكل عيني .. أرقب كل خلجاته .. وبيندا واقفة عند الباب تنظر اليه فى لوعة وخوف ..
و كنت أنتظر كلمة واحدة تخرج من فمه ..
كلمة واحدة هى التى ستحدد مصيره ..

لو خرجت هذه الكلمة بلغة « الولىف » ، فقد فشل العلاج .. ولو خرجت باللغة العربية فقد نجح العلاج .. ولنبحث ..

وفتح سامى عينيه .. ونظر الى بيندا نظرات تائهة كأنه ينظر اليها من بعيد .. من بعيد جدا .. ثم عاد وأغمضهما كأنه ينظر

بهما الى داخل نفسه .. ووجهه يزداد امتقاعا .. أصبح وجهه في
لون الموت .. وبعد فترة فتح عينيه مرة أخرى ..
وخرجت الكلمة ..
تكلم ..
تكلم باللغة العربية ولهجة اللبنانية ضعيفة مريضة متهافة..
قال :

— نعم .. انها تشبهها ..
وجلس على المقعد في راحة .. راحة الانتصار .. وقلت
وأنا أبسم كاني استاذ يختبر ذاكرة تلميذه :
— تشبه من ؟ ..
وألقى سامي نظرة أخرى على بيندا الواقفة على الباب ،
ثم التفت الى قائلا :
— تشبه المرأة الأخرى .. انى اذكرها الآن تماما .. هي
التي روت لى قصة الملك سوتدياتا .. وكنت أنتظرها لتروى لى
مزيلا من الأساطير .. وكنت أتشبث بها عندما تهتم أن تتركنى ..
وألح عليها لتبقى معى .. ثم كنت أسير معها حتى شاطئ النيجر
.. وهناك تصر على أن تتركنى .. لا أدري لماذا .. ثم تعبر وحدها
الجسر المقام هناك .. وأعود وحدى الى البيت .. حزينا لأنها
تركتنى ..

قلت وأنا محتفظ بإبسامتى :
— هل كنت تحدث أباك عنها ؟ ..
قال :

— لا .. كنت أشعر أن بينى وبينها سرا لا يصح أن أطلع عليه أحدا .. ولم أكن أدري ما هو هذا السر .. و ..
والثفت الى وهو يشب بعنقه نحوى وقال فى صوت أضعف من أن يحتمل ثورته :
— من قال لك انها أمى ؟ .. !
قلت :

— سأروى لك كل شىء .. دعنى أولا أحقنك بحقنة منشطة .. لك فى حاجة اليها ..
وكان فعلا فى حاجة الى حقنة منشطة .. كنت أخاف على قلبه ان يقف تحت ضغط الأزمة التى يجتازها ، والمجهود العنيف الذى بدله ..

وقمت من مقعدى لأعد الحقنة ، وسامى يتبعنى بعينين عاترتين .. وبيندا لا تزال واقفة عند الباب تنقل عينيها بينى وبين سامى فى ذهول ، كأنها تنظر الى طقوس يقوم بها ساحر ، وكلما التقت عيناها بعينى سامى ابتسمت له فى تردد كأنها تذكره بنفسها .

ولم يكن يبدو على سامى أنه يذكرها .. كان ينظر اليها نظرات ضعيفة كأنه لا يزال يقارن بينها وبين المرأة الأخرى .. ولم يكن وجهه يرتش ، ولم يكن لأنفاسه صوت — كما كانت تصفه لى بيندا عندما يراها ويتبعها الى القرية — ولكن وجهه كان مستقرا ، وأنفاسه تهدأ فى صدره .. وعلى شفثيه ابتسامة مريضة متعبة ..

وقلت لبيندا وأنا أعد الحقنة :

— اجلسي يا بيندا .. وأغلقى الباب وراءك !

وأغلقت بيندا الباب ، وتقدمت في خطوات مترددة ، وعدلت المقعد الصغير الذي ألقاه سامى على الأرض ، لتجلس عليه .. والتفت الى سامى لأرى تعابير وجهه .. كنت أخشى أن يغضب لأن فتاة زنجية تجلس معه في نفس الغرفة ، وفي نفس مستوى الاحترام .. ولكنه لم يغضب .. بالعكس حاول أن يقوم من على مقعده ليفسح مكانه لبيندا .. ولكنه عاد وسقط على المقعد من شدة تعب .. وابتسامته لا تزال بين شفثيه .. وجلست بيندا أمامه وهى تنظر اليه وابتسامة كبيرة تمرح فوق أسنانها البيضاء .

ثم التفتت الى كأنها تستغيث بى ..

انه لا يذكرها ..

لا يذكر أنها زوجته ..

ولا يذكر أنه تعود أن يتبعها كلما رآها ..

وابتسمت لبيندا أطمئنها ..

ثم كشفت عن ذراع سامى وحقنته ، وهو يقول باللغة العربية .. وكان حديثه باللغة العربية زيادة تأكيد لى بأنه اتصر نهائيا على عقله الباطن .. عقله الباطن أصبح ضعيفا مهزوما أمام عقله الواعى :

— ألن تروى لى القصة ؟

قلت وأنا أبتسم :

— اصبر ..

ثم فتحت دولابى وأخرجت زجاجة كونياك كنت أحتفظ بها ، وأعطيته كأسا .. شربه وهو ينظر الى بعينين شاكرتين ..
ثم جلست قبالة على حافة السرير ، وأخذت أروى له كل
القصة .. كل شيء .. كل التفاصيل .. وأشرح له حالته .. حالة
ازدواج الشخصية .. والتصرفات التى كان يأتى بها دون أن
يشعر .. وهو يتابعنى بعينين دهشتين والحفنة المنشطة وكأس
الكونياك يصبغان وجهه بلون الحياة .. وكان يقاطعنى :

— هل فعلت هذا .. أنا !!

وآرد عليه :

— نعم .. وستجد الدليل بنفسك !

الى أن رويت له قصة أمه .. وقصة ولادته وطفولته .. ثم
قلت له انى رأيت أمه ، ووصفتها له ..
وتعقد وجهه فى تأثر عميق ، وقال :

— كل ما كنت أسمعه ، اشاعات تقول ان أبى تزوج فى
صغره من امرأة زنجية .. ولكنى لم أكن أصدق هذه الاشاعات ..
ولم أكن أعتقد أن أبى يبلغ من القسوة الى حد أن يحرم أمى
منى ..

قلت :

— ان أباك معذور .. انه ضحية المجتمع الافريقى الذى
يفرق بين الزوجة الزنجية والزوجة البيضاء ..

وهز سامى رأسه ، وشفتاه مقلوبتان فى مرارة كأنه لا يقبل
عذرا لآبيه ..

ثم التفت الى بيندا وقال لها باللغة الفرنسية :
— وهل الآنسة تعلم كل ذلك ؟
قالت فى حياء وهى ترخى عينيها :
— لم أكن أعلم أنك ابن عمتى !
وارتفع حاجبا سامى فى دهشة ، وشب بعنقه نحوها ، وقال
بصوت مبهور :

— وهل أنا ابن عمك ؟
قالت فى خفر :
— نعم ..
وقلت معقبا :
— وهى زوجتك أيضا !
وانتفض واقفا وصرخ :
— وتزوجتك أيضا .. مستحيل .. مستحيل .. هذا ادعاء ..
هذا كذب ..

واغرورقت عينا بيندا بالدموع ..
وقلت لسامى فى هدوء :
— ان زواجك مسجل فى القبيلة .. وكل أفرادها يشهدون
عليه ..
قال فى حدة :
— ولو ..

قلت :

— هل تذكر قصة هذا الخدش الذى يشق عنقك ..
ورفع كفه بحركة تلقائية وتحسس الخدش فى عنقه كأن
ناموسة لسعته .. ثم قال فى حيرة :
— لا .. لا أذكر !

قلت :

— انه خدش حديث .. لم يمض عليه أكثر من أربعة أيام ..
قال :
— أعلم ذلك .. ولكنى لا أذكر شيئاً عنه .
قلت وأنا أنظر الى بيندا :
— ان بيندا تستطيع أن تذكرك به ..
ولم تسكلم بيندا .. رفعت أصابعها ومسحت بها دموعها ..
وعند أقول لها :

— تكلمى يا بيندا .. لم يعد هناك شيء تخفيه ..
وأسقطت بيندا رأسها فوق صدرها ، وقالت فى صوت

خافت :

— كنا قد اتهمنا من الرقص .. وأردت أن تجذبني داخل
إلكوخ .. ولكنى فررت منك الى الغابة .. وأخذت أجرى ،
وأنت تجرى ورائى .. ونحن الاثنين نضحك .. الى أن لحقت
بى .. لم تلحق بى لأنك أسرع منى .. بل لأنى سمحت لك أن
تلحق بى .. وأمسكتنى .. وافتعلت المقاومة .. أحاول أن أهرب
منك .. وأنت تحاول أن تمسكنى من شعرى .. وخدش ظفري

عنقك .. غصبا عنى .. وسال الدم .. فجففته لك بشفتى .. ثم
عدنا الى الكوخ ..

وظل سامى ينظر اليها فى تعجب واهتمام ، كانه يحاول أن
يكشف نفسه فى وجهها ..

ثم عاد وجلس على مقعده ، ووضع رأسه بين كفيه .. وظل
صامتا ..

وعادت بيندا تجفف دموعها بكف يدها ، ثم رفعت رأسها
فجأة ، وقالت لسامى فى حدة :

— أنا لا يهمنى أنك تزوجتنى .. كل ما يهمنى أنك
كنت تحبنى ! ..

ورفع سامى رأسه اليها ، ونظر اليها طويلا .. وظل ابتسامة
مسكينة يطل من شفثيه .. ثم ألقى برأسه الى الوراء وأسند
على ظهر المقعد ، وقال فى صوت هامس كانه يحدث نفسه :

— اننى ماتيس .. أبى أبيض ، وأمى زنجية !

قلت كأنى أخفف عنه :

— هذا ليس عيبا !

قال :

— لا يادكتور .. انك لاتعرف كيف يعامل الناس الماتيس ..
قلت :

— هذا عيب المجتمع .. وليس عيب الماتيس .. ان الماتيس

انسان كامل ، ومن حقه أن يفرض مكاتته على المجتمع .. على
أى مجتمع ..

وهز سامى رأسه فى استخفاف ، وقال وهو يهز كتفيه كأنه
يهزأ بمصيبته :

— منرى ..

ثم عاد يضع رأسه بين كفيه ..
وقامت بيندا واقعة فى عصبية ، ونظرت الى كأنها تلومنى ،
لأنى أفقدتها تأثيرها على سامى ، وقالت فى حدة :

— يجب أن أنصرف الآن ..

قلت وأنا ابتسم لها فى امتنان صادق :

— شكرا .. لقد اديت دورك كما أردته .. لولاك لما
استطعت شيئا ..

ونظرت الى فى ازدراء ، ولم تمد يدها لتصافحنى ..
وهمت أن تتجه الى الباب ، وفجأة رفع سامى رأسه ، وقال
لها فى صوت ثابت كأنه انتهى من اتخاذ قراره :

— انتظرى .. سأتى معك !

وابتسمت بيندا ابتسامة مترددة ، ووقفت فى حيرة كأنها
لا تصدق أن سامى سيذهب معها .

ومد سامى يده يصافحنى .. وقال فى لهجة جديدة ، ليس
فيها كلامه الكثير ، ولا ضحكاته الفارغة :

— شكرا يا دكتور .. أحس بأنى استرحت .

قلت وأنا أصافحه :

— متى أراك ؟

قال :

— سأمر عليك ..

قلت :

— يجب أن أراك مرة ثانية .. انى مسافر كما تعلم بعد

غدا

قال :

— سأحاول ..

ومشى مرفوع الرأس الى بيندا .. لا ينظر الى بوز حذاءه

كعادته ..

وقالت بيندا فى صوت خافت :

— أعتقد أنه يجب أن أزل وحدى ، وتلحق بى فى

الشارع .. ان الزوج ممنوعون من هذا الفندق كما تعلم ..

ويجب ان اخرج متسللة !

وارتفع رأس سامى فى كبرياء ، وقال كأنه انسان جديد ،

ولهجته اللبنانية الضخمة تملأ شذقيه :

— ألم تقولى انك زوجتى .. ان زوجتى لا تخرج من مكان

متسللة .. لا أحد يستطيع أن يمسه ..

ووضع ذراعه فى ذراعها وجذبها نحو الباب ..

والتفتت الى بيندا تبسم ابتسامة كبيرة .. تشكرنى بها ..

وضمت وراء سامى :

— أين تذهب ؟

وقال سامى وهو يخفى من أمامى ، هو وبيندا ..

— لست أدري ..

وكنت أعلم أن أول ما سيجاوله سامى بعد أن يخرج هو
أن يتأكد بنفسه من صدق المعلومات التى أدليت له بها .
سيحاول أن يكتشف بنفسه تاريخ حياته .. وأصل عقده
وأغلقت بابى وراءهما ، وألقيت نفسى على المقعد الكبير
وأنا اتهد فى راحة .. ثم أمسكت بدفتر مذكراتى الطبية ،
وأخذت أسجل ما حدث ..
ولكنى لم أتم تسجيل مذكراتى ..
نمت ..

وفى صباح اليوم التالى ، وفى الساعة العاشرة .. دوت
طرقات عنيفة متعجلة على بابى .. ودخل سليم مهرولا ولهفته
اللبانية تتدفق أمامه ، وهو يصيح :
— يا دكتور .. سامى لم يعد الى البيت منذ ليلة أمس ..
ونظرت اليه فى اهتمام وقلت :
— هل سألت عنه فى القرية ..
قال وهو يكاد يبكى :
— سألت .. انه لم يذهب الى هناك .. ماذا فعلت به
يا دكتور ؟
قلت :
— وهل سألت عن بيندا ؟

قال :

— وجدتكم في القرية يبحثون عنها أيضا .. انها لم تذهب الى هناك .. طمنى يا دكتور .. ماذا فعلت بأخى ؟

قلت :

— اطمئن .. أخوك شفى .. ومهما حدث سيعود اليك انسانا سليما ..

قال :

— كيف أطمئن ..

قلت :

— ثق بى ..

والواقع انى لم أكن مطمئنا على سامى .. الى أعرف أن الطريقة التى عاجلته بها ، قد تؤدي الى نكسة .. قد يعود فى حالة أسوأ مما كان فيها .. ولكنى أخفيت مخاوى عن سليم ، وقلت له بسرعة حتى أشغله عن التفكير فى سامى :

— هل أعددت الحفلة الموسيقية ؟

قال :

— نعم .. أعددتها .. ولكن و ...

وقاطعته قائلا :

— متى تبدأ ؟

قال :

— فى الساعة الثامنة ..

قلت :

— وهل عاملت سامية كما أوصيتك ؟

قال :

— نعم .. عاملتها كأنها لا تزال في العاشرة من عمرها ..
واعترضت لها ألف مرة عن ضربى لها .. وأقنعتها انى معجب
بصوتها .. رغم انى متأكد انى سأضربها مرة أخرى لو سمعت
صوتها ..

قلت :

— وماذا كان تأثير كل ذلك عليها ؟

قال :

— يبدو أنها بدأت تجنبى أكثر .. لقد طلبت منى مفتاح
الدولاب .. وأخرجت كل المجلات القديمة وأخذت تتصفحها ..
ثم استمعت هذا الصباح الى أسطوانة أم كلثوم دون أن تبكى .
قلت :

— عال ..

وعاد يقول فى لهفة :

— ولكن سامى ..

قلت :

— اطمئن .. عد الآن الى دكانك . وسأكون ضمن المدعوين
فى حفلة الساعة الثامنة .

وهز رأسه فى أسى وخرج ..

ولم أفكر فى سامية ..

ولكنى كنت أفكر فى سامى .. وكنت أسأل نفسى فى لهفة :

هل سأراه مرة ثانية !

- ١٠ -

بقيت في الفندق طول النهار أفكر بنصف عقلى فى الصدمة
 الثانية التى أعدها لسامى ، وأفكر بالنصف الآخر فى سامى ..
 كنت فى انتظار أن يزورنى سامى .. وكنت متلهفا على
 أخباره والاطمئنان عليه .. كنت أعلم أنه يجتاز الآن مرحلة
 الطفولة بالنسبة للحياة الجديدة التى فتحتها أمام عينيه .. حياته
 كابن لأم زنجية .. حياة المائيس .. وكنت أخاف عليه من هذه
 الطفولة .. أخاف ألا يحتمل عقله هذه الحياة الجديدة ، فيعود
 ويختل ، ويضعف أمام عقله الباطن ..
 ومرت الساعات ولم يأت سامى ..
 ترى أين هو ؟

هل أخذ بيندا وفر من المدينة ، حتى لا يواجه الناس الذين
 يعرفهم ، وهو نصف زنجى ؟
 هل يحاول أن يتحرى صدق المعلومات التى أدليت له بها ؟
 لا أدرى ..

وفى الساعة السابعة والنصف مساء كنت مرتديا ثيابى ..
 بدلة كاملة غامقة اللون ، رغم اللهب الذى يفح من الأرض ،
 وخرجت من الفندق ، وفى يدى حقيبتى الطبية الصغيرة ،



واتجهت الى بيت سليم .. بيت العائلة التي تحمل كل عقد
افريقيا النفسية ..

واستقبلني سليم على الباب جزعا ، وقال ولهفته اللبنانية
نرتعش بين شفتيه :

— لا أدري لماذا طاواعتك .. ان هذه الحفلة مهزلة .. الهما
فضيحة مستحدث عنها كل الجالية اللبنانية في بامالكو ..
قلت في اختصار :

— المهم هو شفاء سامية ..
 ثم استطردت في لهفة :
 — هل جاء سامى ؟
 وأجاب كأنه يندب أخاه :
 — أبدا .. لقد بحثت عنه في المدينة كلها ، ولم أجده ..
 ودخلت وراءه ..

وكان سليم قد أعد صالة البيت كما أوصيته .. أقام منصة
 كبيرة في الصدر ، جلس عليها الموسيقيون .. وصف أمامها
 مقاعد المدعوين ، حتى بدت كمسرح صغير ..

وتلفت الى وجوه المدعوين ، وقدمنى سليم الى بعضهم
 باسمى كاملا .. و .. من مصر .. انهم جميعا يحملون طابعا
 واحدا رغم اختلاف أشكالهم .. كلهم يحملون فوق وجوههم
 هذه الصرامة ، التى تدل على الصراع العنيف الذى عاشوا
 فيه ، وهذه القسوة التى جمعوا بها أموالهم ، وهذه الآلية التى
 تسيطر عليهم وتخفق عواطفهم .. كل منهم آلة تجمع النقود ..
 وعيونهم باردة .. وابتساماتهم لزجة .. ويشربون النبيذ الذى
 قدمه لهم صاحب البيت ، فى شراهة ، كأنهم يبحثون عن الدفء
 فى هذا الجو الحار .. وحتى أفراد الفرقة الموسيقية ، رغم
 أشكالهم المضحكة المتباينة ، تملو وجوههم نفس الصرامة ،
 والعيون الباردة ، والابتسامات اللزجة .. ويعزفون على آلاتهم
 كأنهم يعزفون الأرض .. بعنف .. وبلا احساس .. وتحت مفعد
 كل منهم ، كأس النبيذ !

وبدأ المدعوون الذين عرفنى بهم سليم يسألوننى عن مصر ،
ويبدون حماسا مفتعلا ، مغالى فيه ، للعروبة ..
وأخذت الفرقة الموسيقية تعزف أحد البشارف القديمة ..
وتقاسيم على العود .. وعلى القانون ..
وأنا أتلقت بين الحين والحين الى سامية ..
كانت سامية جالسة فى ركن بعيد من الصالة .. لم تكن
تشارك فى استقبال المدعوين ولا فى الخفاوة بهم .. ولم تكن
فى حالة تسمح لها باستقبالهم أو الاحتفاء بهم .. كانت باهتة
اللون .. شفتاها ترتعشان رعشة خفيفة .. وتدور بعينيها فى
نظرات حذرة مترددة ، كأنها تبحث عن شئ ..
وكنت أعلم الحالة التى تعانىها ..
انها الآن تواجه لأول مرة حلمها الكبير الذى عاشت فيه
طفولتها .. عاشت فيه كحقيقة .. ولكنها بدأت تشك فى حلمها ،
بدأت تشك فى الحقيقة الوهمية .. فان البيت لم يشهد حفلة من
هذه الحفلات الا فى أيام أبيها .. فاذا كان الحلم حقيقة ، فلا بد
أن يكون أبوها موجودا فى الحفل .. لو رأت أباهها لتأكدت لها
الحقيقة .. ولن تجد أباهها .. ولن تجد الحقيقة .. ستعلم أن هذه
حفلة من حفلات حلمها الكبير التى تغنى فيها .. ولكن أباهها ليس
موجودا .. وهى تدور بعينيها تبحث عنه .. تبحث عن الحقيقة ..
ولن تجد أباهها .. ولن تجد الحقيقة .. ستعلم أن ما تبحث عنه
ليس حقيقة .. أنه وهم .. فاذا اكتشفت أنه وهم .. أفأقتا
وظلت سامية تطلق حولها هذه النظرات الحذرة المترددة ..

ووجهها يزداد يياضا ، وشفتها تزدادان ارتعاشا ، وعيناها
تزدادان اتساعا .. الى أن انتهت الفرقة الموسيقية من عزف
البشارف والتقاسيم .. وبدأت أصوات المدعوين ترتفع بالكلام
المخمور ، والضحكات الصاخبة .. فهمست في أذن سليم :
— قم وقف على المنصة ، وأعلن أن سامية ستغنى أغنية
لأم كلثوم ..

وقال سليم في حدة :

— مستحيل .. لقد غيرت رأيي .. لن أساعدك في خططك
.. انى لا أفهمك .. ولا أريد أن أفهمك .. زهقت يا أخى ..
قلت :

— قم .. من أجل سامية ..

قال في اصرار :

— أهون على أن تموت ، من أن تغنى أمام الناس ..
قلت :

— انها لن تغنى ..

قال :

— من أدراك ؟

قلت :

— انى متأكد ..

قال :

— ولو .. لقد ضيعت منى أخى .. ولن أسمح لك بأن
تضيع أختى ..

قلت في لهجة حادة :

— هذا ليس وقت جدال .. قم وقدم سامية للغناء .. والا
سأقدمها أنا ..

قال :

— الى أمنحك ..

قلت :

— لن تستطيع .. لقد أصبحت أنا المسئول عن سامية ..
بموافقتك ..

قال في تردد :

— لقد سحبت موافقتي ..

قلت :

— تذكر أن كل ما استنتجته عن حالة سامي قد ثبتت لك
صحته .. وهذا يكفيك لتجاوزف معي في علاج سامية ..
ونظر الى سليم نظرات حائرة ، وواجهته بنظرات جامدة
صارمة .. ثم تردد قليلا ، ورفع كأسه وقذف بكل ما فيه في
جوفه ، ثم قام ووقف على المنصة ورفع ذراعيه ليسكت
المدعوين ، ثم قال بصوت محشرج ، وهو ينظر في وجوه الناس
نظرات حادة متحدية ، كأنه يتهدهدهم :

— اخواني .. أقدم لكم الآن مفاجأة .. أختي سامية
ستغني لكم أغنية لأم كلثوم ..

ومرت لحظة بهت الناس فيها .. لم يكن أحد منهم يعلم
أن سامية تستطيع أن تغني .. ثم التفتوا جميعا ناحية سامية
والدهشة لا تزال عالقة في عيونهم .. ثم بدأوا يصفقون ،

تصفيقا حادا متواصلا ، وقد علت شفاههم ابتسامات ساخرة ،
 كأنهم على وشك أن يشاهدوا مسرحية مضحكة ..
 وارتدت سامية الى الوراء عند ما سمعت صوت التصفيق ،
 وتشبثت بمقعدها ، وفي عينيها نظرات جزعة .. لقد اختلطت في
 خيالها — مرة ثانية — حركة الأيدي وهي تصفق ، بحركة
 يدي سليم عند ما كان يصفعها اذا همت بالغناء .. ولكن عقلها
 الواعي تنبه الى أن سليم قد اعتذر لها عن صفعها ، ووعدها
 ألا يعود ويضربها ، وأقسم لها أنه معجب بغنائها .. فعادت
 واعتدلت في جلستها .. وانطفأت نظرات الخوف في عينيها ،
 وحلت محلها نظرات التردد والشك .. ووضعت أصبعها في
 فمها كالأطفال ، ثم رفعت من فمها .. كأنها تنبته الى أنها
 ليست طفلة !

لقد بدأت المعركة تقترب الآن من ذروتها ..
 معركة النفسية ..

المعركة بين عقلها الباطن الذي لا يزال يعيش في عمر
 العاشرة ، وسيطر عليها .. وبين عقلها الواعي الذي يحاول أن
 يتحرر من هذا الوهم الذي يمليه عليه العقل الباطن ..
 وظلت في مكانها ..

وأنافسها تتردد في حشجة كأنها تخرج من منفاخ مثقوب .
 ووجهها أصبح في لون الفراغ ..
 وعيناها تلمعان بالشك والحيرة ..

وجاء سليم وجذبها من ذراعها في رفق وهو يقول :

— تعالى يا سامية .. الناس ينتظرونك !
واستسلمت لجذبة أخيها .. وقامت .. وسارت بين المدعوين
متخفية كأنها تسير في نومها .. ساهمة .. مبهوتة .. ألقاسها
تخرج من المنفاخ المثقوب ..
وساعدها سليم على ارتقاء المنصة ..
حملها حملا ، وأوقفها أمام الناس ، كأنه يزرعها في
الأرض ..

وظلت سامية واقفة تنظر الى الناس في حيرة ، كأنها
لا تدري لماذا وقفت أمامهم .. والعرق البارد يتفصد فوق
وجهها المريض .. وسكت الناس في انتظار أن تبدأ في الغناء ..
وهي لا تزال تنظر في وجوههم في حيرة .. نظرات شاردة ..
مرتدة .. ثم بدأ الناس يتصايحون :
— غنى يا سامية .. أسمعينا يا سامية ..
وهي ترتعش في وقفاتها .. والبلاهة ترسم على كل
ملاحظها ..

وكنيت أعلم أنها لا تسمع تصايح الناس .. ولكنها تسمع
صياحا آخر ينطلق في داخلها .. انها في هذه اللحظة معزولة عزلا
تاما عن عالمها الخارجى .. وتميش بكل خلجاتها وبكل قواها في
عالمها الداخلى .. تعيش في معركتها النفسية .. وهي معركة
عنيفة قاسية ، تبستزف كل قطرات الحياة منها ..
وأحسست بالشفقة تمزق قلبى وأنا أرى سامية في هذا
الموقف ، وأرى مدى ما تعانيه من عذاب .. وبدأ عقلى يتحرك

بسرعة باحثا عن وسيلة أخفف بها من حدة المعركة التي
تعاينها .. ولم تكن هناك أية وسيلة .. كان يجب أن أتركها
تجتاز المعركة وحدها .. وكنت اعلم انه كلما احتدمت المعركة
وازدادت عنفا وقسوة ، اقتربت سامية من الشفاء ..

وأفراد الفرقة الموسيقية ينقرون على آلاتهم نقرات غير
منتظمة ، استعدادا لعزف اللحن الذي تغنيه سامية .. هذه
النقرات تزيد من حدة المعركة التي تجتازها سامية .. انها
تسقط على أعصابها كقطع الطوب فتثيرها .. وتسقط في عقلها
الواعى فتزيد حماسا .. وتسقط في عقلها الباطن فتتحرك
ذكرياتها القديمة .. وخفت على سامية .. خفت عليها ألا تتحمل
كل هذا فتنتهي في لحظة الى الجنون المطلق ..

وكتمت خوفا ، وأنا أدعو لها في سرى .. واضع عيني في
عينيهما وهي واقفة أمامى فوق المنصة ، وأبتسم لها مشجعا ..
ولكنها لا ترانى .. انى متأكد أنها لا ترانى .. نظراتها تائهة
بشادة ..

ومال عازف العود الى الإمام وسأل سامية فى استخفاف :
— ماذا تغنين ؟

ولم ترد سامية عليه .. لم تسمعه .. انها واقفة والبلاهة
ترسم على كل ملامحها ..

واشتد تصايح الناس من حولها .. وبدأوا يتبادلون
النكات .. نكات ثقيلة سمجة .. ويضحكون .. ضحكات
عالية منفرة ، كصراخ الرعب .. وضحكاتهم تنكس على سامية

كضربات المعاول .. تهدبها .. فترنح في وقتتها .. وتشتد لمعة
الحيرة في عينيها .. وتبرز خطوط البلاهة في ملامحها
وعاد عازف العود يسأل سامية وهو يشارك الناس في
ضحكاتهم :

— ماذا تغنين ؟

ولم ترد عليه .. لم تسمعه ..
وتقدم سليم ، ووجهه مزرود من الغيظ ، ومن المهارة التي
يحس بها ، وقال لعازف العود :

— اعزف ، غلبت اصالح في روحى ..
ونظر اليه عازف العود في استخفاف ، ثم بدأت الفرقة
الموسيقية تعزف مقدمة لحن « غلبت اصالح في روحى » ..
وانتهت سامية فجأة ..
أخذت تتلفت حوالها كأنها لا تدري من أين تنبعث هذه
الموسيقى .. وفي عينيها خوف .. خوف كبير ..
وأعادت الفرقة الموسيقية عزف مقدمة الأغنية ..
وفتحت سامية فمها ..
وسقط قلبى ..

خفت أن تغنى .. لو غنت ، فمعنى ذلك انتصار العقل
الباطن .. معنى ذلك أنها لا تزال تعيش في عمر العاشرة ..
العمر الذى توقف عنده نمو شخصيتها ..
ولكنها ظلت مفتوحة الشفتين ..
لم تغن ..

واشتدت الضحكات الصارخة من حولها ..
ضحكات ..
ضحكات ..
وأفواه مفتوحة الى آخرها ..
وعيون ينطلق منها بريق غيف ..
ورءوس تمتد اليها كأنها تريد أن تأكلها ..
وأنا أنظر الى سامية بعينين ثابتتين ، مدققتين .
وعادت تترنج ترنحات عنيفة ، ذات اليمين ، وذات اليسار ..
والى الخلف ، والى الأمام .. كأنها تحاول أن تهرب ، وكأن
قدميها مقيدتان في الأرض ..
وفمها لا يزال مفتوحا .. ووجهها الباهت يرتعش ..
ثم فجأة ..
توقفت عن التريح ..
وانطبق فمها ..
ووقفت ارتعاشة وجهها ..
وهدأت النظرات في عينيها ..
واتنظمت ألقاسها ..
كأنها أفاقت من حلم ..
وبدأت تنظر الى الناس كأنها تعرفهم واحدا واحدا ..
نظرات مسكينة مريضة ..
ثم جرت دموع صامئة فوق عينيها .. وهي لا تزال تنظر

الى الناس من خلال دموعها ، كأنها تعرفهم واحدا واحدا ،
وكانها تلومهم ..

والفرقة الموسيقية لا تزال تعزف لحن « غلبت اصالح في
روحي » ..

والضحكات لا تزال تنطلق في قسوة ..
وسليم واقف خلف سامية فوق المنصة ، ودموع الغيظ
والمهالة تملأ عينيه

وأغمضت سامية عينيه ..

وترنحت في وقتها ..

وفجأة ..

سقطت على أرض المنصة ، فاقدة الوعي ..

وسكتت الموسيقى ..

وسكتت الضحكات ..

ومرت فترة صمت رهيبية ..

واستراح قلبي ..

لقد لجمت الصدمة ..

وقمت من مقعدي سريعا ، وقفزت فوق المنصة وتعاونت
مع سليم على حمل سامية الى غرفتها والناس من ورائنا يلغطون
بكلام كثير .. ثم طلبت حقيتي الطبية ، وحقنتها بالكورامين
لتنشط القلب ، وجلست بجانب سريرها الى أن تفيق ..

وكنت أعلم ما حدث لها بالضبط ..

لقد رأيته يحدث على وجهها ..

لقد صعدت الى المنصة وهى فى شك من أنها تستطيع أن تغنى .. فى شك من حلمها الكبير الذى أصبح حقيقة تعيش فيها ، وأوقف غو شخصيتها .. ويحاول العقل الباطن أن يتغلب على هذا الشك .. أن يقنعها بأنها تستطيع أن تغنى ، وأن يدفعها الى الغناء فعلا .. وذلك فى الوقت الذى كان فيه العقل الواعى يحاول تأكيد هذا الشك ، ويحاول أن يمنعها من الغناء .. وفى خلال المعركة بين العقل الواعى والعقل الباطن ، كانت تقرات الآلات الموسيقية ، والضحكات الصاخبة المرعبة تساعد العقل الواعى .. لأنها أصوات تصل الى سامية من خارجها لا من داخلها ، فتلمس العقل الواعى .. وكلما هم العقل الباطن أن ينتصر زادت التقرات والضحكات فى تنبيه العقل الواعى .. الى أن انتصر أخيرا .. هزم العقل الباطن وأجبره على التنازل عن سيطرته .. عن عرشه !

وعندما انتصر العقل الواعى ، عادت شخصية سامية الى النمو ..

ونمت فجأة ..

قفزت خمسة عشر عاما مرة واحدة .. من سن العاشرة الى سن الخامسة والعشرين .. أصبحت ترى الأشياء حولها ، وترى نفسها ، بشخصيتها الحقيقية .. شخصيتها الكاملة السليمة ..

ولم تحتل سامية هذه القفزة ..

لم تحتل هذه النقلة المفاجئة من عمر الى عمر ..

فأغنى عليها ..

والمصاب بحالة التوقف في نمو الشخصية ، عندما يسترد النمو الطبيعي للشخصية .. أى عندما يشفى من حالته .. لا ينسى ماضيه .. ابدا .. انه يذكر كل شيء في الماضي كأنه لم يكن انسانا شاذا مريضا .. وكل ما يحدث له أن تصرفاته بعد شفائه تتخذ طابعا طبيعيا .. يصبح انسانا عاديا .. يتصرف التصرفات التي عليها عليه عمره ، لا عمر الطفل الذي توقف عنده نمو الشخصية ، وكل ما ينقصه هو بعض التجارب التي كان يجب أن يمر بها لو كان انسانا عاديا ، وهي تجارب يمكن أن يكتسبها بسرعة ..

هذه هي حالة سامية ..

وعندما تفريق لن تواجه مشكلة فقدان الذاكرة بالنسبة لماضيها .. بل لن تحس اطلاقا بأنها كانت مريضة وشفيت .. كل ما هنالك أنها ستبدأ تحكم على تصرفاتها الماضية ، بأنها كانت خاطئة .. تصرفات عيال .. ثم تبدأ في محاولة تصحيح هذه التصرفات .. ستعرف أنها كانت سيئة التصرف عندما كانت تبكي وتصرخ عندما تسمع صوت أم كلثوم .. وستعتبر أن ذلك كان اقعلا مغالى فيه سببه اعجابها بصوت أم كلثوم .. وستتبه الى أنه ليس من اللياقة أن تجلس واصبعها في فمها كما كانت تفعل .. ولن تعتبر أن ذلك كان مرضا أو شذوذا في شخصيتها ، بل مجرد عادة سيئة يجب أن تتخلص منها .. وستواجه ببساطة حلمها الكبير .. ستعرف أنها كانت تصحب أباهما الى الحفلات التي تقام له في لبنان ، وأنها كانت تغنى أمام الجمهور .. وستعرف

لنفسها أن أباه كان يستحضر لها مدرسين خصوصيين لتدريتها على الغناء .. وستعترف أيضا بأنها كانت تعلم — وهى صغيرة — بأن تكون مغنية مشهورة .. متواجه كل ذلك ببساطة ، وستعترف بأن هذا الحلم قد ولى ، كما ولت طفولتها ، وأنها الآن لا تريد أن تكون مغنية ، ولا تريد أن تغنى ، الا لنفسها ، كما تغنى أى فتاة فى عمرها لنفسها .. بل ستعترف أنها جاءت الى فى الفندق وطلبت منى أن أصحابها الى لبنان ، وألى أطلعتها على الصحف القديمة التى نشرت صورتها وستعترف أن كل ذلك كان مجرد تصرفات خاطئة ..

ستبقى سامية كأنها لم تكن مريضة أبدا .. ولم أحاول أن أفيق سامية بالمنبهات ، تركتها ترتاح فى نومها ، ولو أنى أعلم أنه نوم مزعج وأسمع أنفاسها تتردد أمامى فى ضيق .. كأن شيئا يحاول أن يخنقها .. وبعد أكثر من ساعة ، فتحت سامية عينيها ، وتلفتت حوالها ، وعندما رأتنى بجانبها ، التفتت مذعورة ، جالسة فوق السرير ، وقالت فى صوت محرج :

— ماذا حدث ؟ ..

قلت ببساطة وأنا أبتسم لها :

— أغمى عليك ..

قالت :

— لماذا ؟

قلت :

— لأنك ضعيفة ..

قالت في غضب :

— وكيف يحملني سليم ويوقظني أمام الناس لأغنى لهم ..

انه مجنون ..

قلت وأنا محتفظ بابتسامة طيبة :

— لقد قال لى انك تجيد الغناء ، وانك سبق أن غنيت

أمام الجمهور في بيروت ..

قالت :

— كان ذلك زمان .. وأنا طفلة .. ومنذ أكثر من خمسة

عشر عاما لم أبغن .. سليم نفسه كان ينعنى من الغناء ..

قلت :

— ربما أراد أن يقدم مفاجأة لمدعويه ..

قالت :

— لا بد أنه كان سكرانا ..

قلت :

— لقد كان سكرانا فعلا ! ..

وكان سليم في هذه الأثناء خارج الغرفة .. ربما كان

في المطبخ ، أو يودع آخر مدعويه .. ثم جاء الى الغرفة يسير

على أطراف أصابعه وفوجيء بأخته تبذل في وجهه غاضبة ..

وقالت له سامية في حدة :

— هل جنت .. كيف تفعل ذلك بى ..

وغمزت لسليم بعيني ، وفهم غمزتي ، فقال وهو لم يفق
بعد من دهشته :

— آسف .. حقك على يا أختي ..
قالت ولهجتها تعبر عن أنها تحدث أخاها الأصغر :
— هذه أول مرة تسكر فيها الى هذا الحد ..
وقال سليم وإبتسامة خفيفة تملو شفثيه :
— آسف ..

وقمت واقفا وأنا أقول لها :
— الآن .. يجب أن ترتاحى .. وغدا يجب أن تذهبي الى
طبيب ليصف لك دواء مقويا ..
ثم فتحت حقيتي ، وناولتها قرصين صغيرين من دواء ،
« البرجال » المنوم ، وقلت لها :
— هذه الحبوب لتساعدك على النوم ..
وانتظرت الى أن ابتلعت القرصين ، ثم مددت يدي مصافحا ،
وأنا أقول لها :

— تصبحى على خير ؟ ..
وشدت على يدي وهى تقول فى لهجة حازمة مستقيمة :
— شكرا يا دكتور .. هل نراك غدا ؟
قلت :

— من سوء حظى .. مضطر أن أسافر غدا
قالت :

— مع السلامة .. لا تنسنا فى مصر ..

قلت :

— لن أنساكم أبدا .. في أى مكان ..
وتخيت أن أنحنى لأقبلها في جبينها .. لقد شعرت في هذه
اللحظة أنها ابنتى .. هذه الشخصية الجديدة أنا الذى صنعتها ..
أنا الذى اكتشفتها .. انها ابنتى .. وقد يكون في ذلك غرور
الطبيب .. ولكن لا شيء أمتع في حياة الطبيب من لحظات غروره
وثقته بنفسه عندما ينجح في علاج حالة تعرض عليه ..

وخرجت من الغرفة ..
وأطفا سليم نور حجرة سامية ، وخرج ورائى وهو يهمس :
— ماذا حدث يا دكتور ..

قلت :

— هل توصلنى الى الفندق ؟ ..
قال في حماس :
— طبعاً ..
قلت :
— سأرؤى لك كل شيء في السيارة ..
وركبت بجانب سليم ، وقاد سيارته وهو ينظر الى متلفها ..
وتجاهلت لهفته وقلت له :

— هل نستطيع أن نصل الى القرية الآن ؟
قال في دهشة :
— لماذا ؟

قلت :

— لعل سامى ذهب الى هناك .. انى أريد أن أراه قبل أن
أسافر ..

وسكت سليم ، وهو يقود السيارة فى اتجاه الجسر المقام
على نهر النيجر ، والطريق الطويل الذى يشق الغابة ويؤدى الى
القرية ..

وأخذت طول الطريق أشرح له حالة سامية ، وكيف أعددت
لها الصدمة التى أعادت لشخصيتها نموها الطبيعى ، وهو يستمع
الى مبهوتا كأنى أطلعه على عالم جديد لم يتصوره أبدا ..

ثم قال وهو لا يزال مبهوتا :

— هل أقول لسامية هذا الكلام ..

قلت :

— لا .. اننى أطلع المريض على حقيقة حالته عندما يفيد
اطلاعه فى علاجه .. كما فعلت مع سامى .. ولكن سامية ليست
فى حاجة الى معرفة حقيقة المرحلة التى كانت تجتازها .. وقد
تركها معرفتها بها .. ولكن .. بعد عمر طويل .. عندما تشيخ
وتشيخ سامية معك .. تستطيع أن تروى لها كل ما حدث
كأسطورة ! ..

وسكت سليم وهو لا يزال هائما فى دهشته ..

ووصلنا الى القرية ..

انها قطعة من الليل ..

لا شئ يبدو منها .. حتى أكوأخها لا تبدو الا كأشباح
رابضة فى الظلام ..

وحمل سليم مصباحه البطارية الذي يحتفظ به دائماً في درج
سيارته .. وسار بجانبى ، تتقدمنا الحلقة الصغيرة المضيئة التي
يطلقها المصباح ..

ولم تقابل أحدا من أهل القرية .. كأن أهلها هجروها ..
واتجهنا الى كوخ الكاباكا ، وقلبى يرتعد من الرهبة ..
وسلط سليم مصباحه على باب الكوخ .. ثم قرع عليه قرات
خفيفة .. ثم اشتد في النقر حتى أصبح يضرب الباب بكلتا
يديه .

وفجأة افتتح الباب وانطلق منه عملاق في لون الظلام ..
عار الا من قطعه صغيرة من القماش الأبيض يلقيها حول وسطه
ويتركها تتدلى فوق فخذه .. وبحركة مفاجئة خطف المصباح
من يد سليم ، وسلطه على وجهنا .. وهو يصيح في صوت
قوى ، وبلغه « الولف » :

— من ؟

وقال سليم باللغة الفرنسية في صوت مرتعد :

— نحن ..

ورأيت وجه الكاباكا في ضوء المصباح ، يتععض وهو ينظر
الى سليم ، ثم يخف امتعاضه وتعلوه ابتسامة ساخرة ، وهو
ينظر في وجهى ، وقال بلهجة ليس فيها ترحيب :

— ماذا تريدان ؟

قلت وأنا أحاول أن أكون رقيقا :

— جئنا لسأل عن سامى ..

وارتفع الغضب على وجه الكاباكا ، وقال لى كأنه يتهمنى :

— سامى ليس هنا .. ولا بيندا !

ثم ارتفع صوته وقال لى فى حدة :

— لقد جئت الينا لثنقذ سامى .. فضيعة سامى ، وبيندا ..

قلت وقد أحسست أنه يهيننى :

— سامى أتهذ .. انه الآن انسان كامل ..

قال :

— لن أصدقك ولو أقسمت لى .. كل ما أصدقه أن ابنتى

ليست هنا .. ولا سامى .. وقد أرسلت ثلاثة من أبنائى للبحث

عنهما .. ولم يعودوا بعد .. ان القبيلة كلها اقلب حالها ، وفقدت

هدوءها منذ جئت الينا من مصر ..

قلت فى اصرار :

— ابنتك ستعود اليك .. وسامى !

قال :

— قلت لك انى لن أصدقك ..

قلت بسرعة :

— صدق السماء .. صدق البرق .. السماء هى التى

أمرتك بأن تطلعننى على السر الكبير ..

ونظر الى الكاباكا نفس النظرة الساخطة المتعضة ، ثم

قال باستخفاف متجاهلا قولى :

— هل تريدان شيئا آخر ؟

ووقفنا صامتين ..

وعاد الكاباكا يقول وهو أكثر حدة وضيقة :

— قلت لكما ان سامى ليس هنا ..

وقلت وأنا أبادله حديثه :

— أسعدت مساء .

ومد سليم يدا مرتعشة وأخذ المصباح من يد الكاباكا ،
وسار بجانبى .. وسمعنا باب الكوخ يصفق وراءنا فى عنف ..

وهمس سليم فى صوت مرتجف :

— انه غاضب ..

قلت وقد هدأت حديثى :

— له حق ..

وركبنا السيارة ، وقطعنا مسافة طويلة ونحن صامتان ، ثم
قال سليم فى صوت متردد كأنه يخشى أن يغضبني :

— ترى هل تدري ما يمكن أن يحدث لسامى ؟ ..

قلت باقتضاب وقد هدنى التعب :

— لا .. لا أدري .. ولكنى واثق أنه الآن أحسن حالا ،

وأقدر على التصرف مما كان ..

وسكت سليم ..

قطعنا بقية الطريق صامتين .

وعندما وصلنا الى الفندق ، وقبل أن أنزل من السيارة ..
قال سليم باللغة الفرنسية ، وأنا أعرف أننا نستعمل اللغة
الأجنبية دائما عندما نريد أن نعبر عن شيء يحرجننا أن نعبر عنه

ثقوب فى الثوب الاسود - ٢٤١

باللغة العربية .. لأن اللغة الأجنبية بالنسبة لنا أقل صراحة من
اللغة العربية :

— دكتور .. هل أستطيع أن أسألك كم أتعابك ..
وابتسمت ابتسامة متعبة ، وقلت وأنا أضع قدمي على
الأرض :

— لا شيء ..

قال :

— ولكنك طيب محترف .. وقد تعبت معنا ؟

قلت :

— وأنتم تعبتُم معي بكرمكم ومصاحبتى فى مشاهدة
ياماكو ..

قال :

— ولكن .. دكتور ..

قلت أقاطعه :

— تصبح على خير .. هل سأراك قبل أن أسافر ..

قال فى حماس :

— طبعاً ..

وصعدت الى غرفتى ، قبل أن يعود ويسألنى عن أتعابى ..

وكانت الساعة الخامسة صباحاً ..

ونمت ..

لم ألم سوى ساعتين ، وقمت في الساعة الثامنة ، وتناولت
افطاري في الغرفة ، وأنا أعد حقائبي بسرعة ، وأعد نفسي لرحلة
طويلة .. فقد كان على أن أستقل طائرة « اير افريكا » الى
دكار .. ثم أستقل طائرة « اير فرانس » الى الدار البيضاء .. ثم
طائرة أخرى الى روما .. ثم طائرة شركة مصر الى القاهرة ..
ثلاث ليال سأقضيها طائرا !

وخرجت من غرفتي ، ووجدت سليم ينتظرنى في بهو الفندق
ووجهه مرهق وعينه غائرتان .. وقلت له وأنا أعرف ما يشغله :

— هل عاد سامى ؟

وقال في يأس :

— لا ..

قلت وأنا أكاد أشاركه يأسه :

— وكيف حال سامية ؟

وعلت وجهه ابتسامة صغيرة :

— أظن أنها أصبحت انسانة أخرى .. تصور .. لقد قامت

في الصباح وأخذت تشرف على نظافة البيت .. عمرها ما فعلت
هذا ..

وابتسمت معه ابتسامة صغيرة أيضا .. فلم تكن نستطيع

— لا أنا ولا هو — أن نبتسم ابتسامة كبيرة ، الا اذا عثرنا
على سامى .. أو على الأقل عرفنا شيئا عنه ..

وصحبني سليم الى المطار ، وبدأ يساعدني في افجاز جواز

سفرى ، وتذكرة الطائرة .. وأنا أتلقت باحسا عن سامى ..

والواقع أن سليم لم يكن يساعدي... كان يقيم ضجة كبيرة
ويدخل في مشادات عنيفة مع موظفي الجمرک والمطار ، لا مبرر
لها .. ولكنه كان يريد أن يثبت لى أنه يساعدي ..
وقبل أن أخرج من الجمرک ناولنى سليم لفافة كبيرة كنت
قد رأيتها طول الوقت فى السيارة .. وقلت فى دهشة :

— ما هذا ؟

قال :

— هدية صغيرة ..

وحاولت أن أعترض ، ولكنه قال فى رجاء صادق :

— أرجوك يا دكتور ..

وخرجت من الجمرک أحمل هدية سليم ، وأنا لا أزال
أتلفت باحثا عن سامى .. لعله يأتى فى آخر لحظة ..
وخرج معى سليم ، حتى أوصلنى الى باب الطائرة .. ثم
مد يده يصافحنى قائلا :

— شكرا يا دكتور ..

ثم لم يتمالك نفسه ، فاحتضننى ، وقبلنى فى كتفى ،
والدموع تبرق فى عينيه .. ان سليم رغم كل شىء انسان
عاطفى ..

وربت على ظهره .. وأنا أقول له :

— اطمئن .. سامى سيعود !

ثم صعدت الى الطائرة ، وقبل أن أدخل من بابها ، التفت

ألقى نظرة أخرى على المطار .. لم أكن أنظر الى سليم ، ولكنى
كنت أعلق بآخر أمل ، لعلى الملح سامى ، جاء يودعنى .
وأغلق باب الطائرة ..

وزحفت على الأرض ..

ثم حلقت ، وهى ترتعش كالعصفور .. انها طائرة «داكوتا»
صغيرة ، جافة متعبسة ، رغم أن «اير افريكا» فرع من «اير
فرانس» .. ولكن لمجرد أن طائراتها تعمل على الخطوط الداخلية
فى افريقيا السوداء ، وقد يركبها الزنوج .. كان يجب أن تكون
طائرات حقيرة متعبة ..

ولم أحاول أن أنظر الى الغابات من تحتى .. كنت طوال
الوقت أستعيد تفاصيل رحلتى فى افريقيا ، والوجوه التى
قابلتها .. لقد كانت رحلة مثيرة ، ووجوها نادرة .. وقد اكتشفت
شيئا فى افريقيا .. شيئا لم يخطر على بال الرحالة ستالى أن
يكتشفه .. ولكن اكتشافى لم يتم .. لن يتم اكتشافى الا اذا
علمت ما حدث لسامى ..

- ١١ -

مضت عشرة شهور على عودتي من افريقية ..

عدت الى عيادتي في ميدان سليمان باشا أستقبل مرضاي ..
وأنا لا أسميهم مرضى ، ولكنى أسميهم « حالات » .. ورغم
كثرة الحالات التي عرضت على منذ عودتي الى القاهرة الا أنني
لم أستطع أن أفقد اهتمامي بالحالتين اللتين اكتشفتها في
افريقيا .. حالة سامي .. وحالة سامية .. خصوصا حالة سامي ..
والسبب في تركيز اهتمامي على حالة سامي ، أنها حالة لا تمثل
فردا ، ولكنها تمثل مجتمعا .. مجتمع كامل قائم في افريقيا وفي
آسيا هو مجتمع الأولاد المخلطين ، الذين يختلط في عروقهم الدم
الأبيض والدم الملون .. أو مجتمع « الماتيس » كما يسمى في
افريقيا ..

وبلغ من شدة اهتمامي بمقدرة هذا المجتمع انى فكرت في
أن أكتب بحثا علميا أقدمه في اجتماع مؤتمر الأطباء النفسانيين
القادم .. بل الى بدأت فعلا في كتابة هذا البحث ، ووضعت
عنوانا له « عقدة الماتيس » .. ليالى كثيرة قضيتها ساهرا في
بيتى بعد انتهاء عملي في عيادتي ، وجلد النمر والتماثيل الأسود



الصغير ، اللذان أهدهما لى سليم ، موضوعان أمامى .. أعد هذا البحث .. وأراجع المذكرات التى كتبتهما عن سامى ، وعن وضع الماتيس فى المجتمع الافريقى ، وأقلب فى الصور الفوتوغرافية التى التقطتها أثناء رحلتى ، وأبخلق فى الوجوه التى صورتها — ومنها صورة سامى — كأنى أحاول أن أقرأ فيها ما لم أقرأه فى الكتب العلمية الكثيرة التى بحثت هذا الموضوع ..

وأثناء اعدادى لهذا البحث ، خطر لى خاطر غريب ، اعتبر ، خاطرا جريئا من الناحية العلمية ..

فقد سبق ان قلت ان عقدة الماتيس ، هى عقدة الوقوف بين مجتمعين متعارضين .. مجتمع البيض ، ومجتمع السود .. عقدة الوقوف فى الوسط .. فلا يستطيع الفرد من الماتيس أن يتقدم الى الأمام كى ينضم الى البيض ، أو يتراجع الى الخلف لينضم الى السود ..

ويؤثر هذا الموقف فى كل كيانه .. يؤثر فى عقليته .. فى عواطفه .. فى تصرفاته .. ويحدد له مركزا اجتماعيا خاصا ، يجد نفسه مجبرا على أن يبقى فيه .. ولكن ..

كيف انتهى الماتيس الى هذا الموقف .. هل يكفى — من الناحية العلمية لا الاجتماعية — أن يولد من أب أبيض أو أم زنجية ، حتى يجد نفسه فى هذا الموقف ؟ لا ..

لقد انتهى الماتيس الى هذا الموقف لأنه فقد القدرة على الاختيار بين المجتمعين الأبيض والأسود .. فقد ارادة الاختيار . كيف فقدما ؟

سحبها منه المجتمع الذى يحيط به منذ أن يولد .. فالطفل الماتيس يفتح عينيه على الحياة ، فيجد مجتمع البيض يرفضه ، ومجتمع السود يرفضه .. وتكون ارادته لم تتكون بعد بحيث يستطيع أن يفرض نفسه ، أو يفرض وجوده على أحد المجتمعين ، وأن يقاوم هذا المصير الذى يرضاه عليه .. أى أنه يفقد منذ طفولته ارادة الاختيار ، و ارادة مقاومة المصير .. ويشب ويكبر وهو فاقد هذه الارادة ، مستسلم لهذا الوضع الذى فرض عليه ... ولكن ..

لنفرض أن طفلا من الماتيس قد ولد ، وفتح عينيه على الحياة ، وهو كامل الارادة .. وهو يحمل ارادة رجل كامل قوى .. فهل يستطيع هذا الطفل أن يحدد مصيره .. هل يستطيع أن يتحرر من عقدة الوقوف فى الوسط .. وأن يفرض وجوده على أحد المجتمعين .. فاما أن يكون أبيض له كل مقومات شخصية البيض ، أو أسود له كل مقومات شخصية السود ؟ ..

هذه هى حالة سامى ..

لقد ولد سامى كأحد أبناء الماتيس ، وهو يحمل ارادة رجل قوى .. ولد وهو فى الثلاثين من عمره ..

قبل ذلك لم يكن يعرف أنه ماتيس .. وعاش طفولته وشبابه في مجتمع مستقر من الناحية النفسية ، تكونت له فيه ارادة كاملة يستطيع أن ينطلق بها من موقف الوسط ، ويسير ما شاء من خطوات الى الأمام .. لم تفرض عليه شخصية الوسط ، ولا عقلية الوسط ، ولا تقاليد الوسط ، ولا عواطف الوسط ، ولا الاحساس الدينى الوسط .. ثم بعد ذلك .. بعد أن شب كإنسان كامل ، أعيدت ولادته من جديد كأحد أبناء الماتيس .. فهل يستطيع أن يستعمل ارادة الاختيار ويفرض وجوده على أحد المجتمعين اللذين يحيطان به .. أم يغلبه المجتمعان — الأبيض والأسود — ويفرضان عليه موقف الوسط ؟

هذا هو الحاطر الجرىء الذى خطر لى وأنا أعد بحثى .. وقد أتعبنى هذا الحاطر كثيرا ، ودفعنى الى بذل كثير من الجهد فى محاولة تحقيقه وإثباته من الناحية العلمية .. ولكنى لم أكن أستطيع أن أحققه وأثبتته الا اذا جاءتنى أخبار سامى ، ووقفت على تطورات نفسه ، بعد أن أعدت ولادته من جديد كأحد أبناء الماتيس .. ولم تصلنى أى أخبار عن سامى ..

وكنت عقب عودتى من افريقيا قد انتظرت أكثر من شهر ، لعل رسالة تصلنى من سامى أو سليم .. رسالة شكر على الجهود التى بذلتها لهم .. خصوصا وأنى تركت لسليم عنوانى ، وأوصيته أن يكتب لى ليطمئننى على حالة سامى وسامية .. ولكن لم يصلنى شئ .. ولم أستطع أن أفسر هذا الاهمال الا

بأن أحداثاً قد وقعت في محيط العائلة ، منعت سليم من الكتابة الى .. واشتدت لهفتي أو على الأصح ، شهوتي الاستطلاعية كطبيب نفسي ، على الوقوف على هذه الأحداث .. فكتبت رسالة الى سليم .. رسالة رقيقة أشكره فيها على ضيافته لي ، وعلى مصاحبتى في الطواف بمدينة باماكو ، وأطمئن فيها على صحة أفراد العائلة .. ولم أحاول في رسالتى أن أتعرض لحالة سامى وسامية بالتفصيل ، لأنى لم أكن أعرف شيئاً عما يمكن أن يكون قد حدث لهما من تطورات ..
وانتظرت شهراً ..

ولم يصلنى الرد ، رغم أنى أرسلت الرسالة بالبريد الجوى العاجل المسجل ..
وانتظرت شهراً آخر ، وأنا أعلل نفسى بأن المسافة بين القاهرة وباماكو بعيدة ، والمواصلات بينهما مضطربة ، وقد يستغرق وصول الخطاب ، ثم وصول الرد عليه أكثر من شهرين .

ومضت ثلاثة شهور ، ولم يصلنى شئ ..
ويئست ..

وبلغ من يأسى أن قررت السفر مرة ثانية الى باماكو ثم الى عدة مدن إفريقية أخرى ، لعلى ألتقى بسامى ، أو لعلى اذا لم ألتق به ، ألتقى بحالة أخرى تماثل حالته ، أستطيع أن أحقق بها هذه النظرية العلمية الجديدة في علم النفس التطبيقي ، التى خطرت لى .. وكل ليلة — بلا مبالغة — أنكب على بحشى ،

وأقلب في مذكراتي الطبية وصورى الفوتوغرافية ، وأذكر سامى .. وكلما ذكرته لم أستطع أن أنكر على نفسى ، أن العلاقة بينى وبينه ، ليست مجرد علاقة علمية فحسب .. ليست علاقة عالم بالبوتقة التى يجرى فيها تجاربه .. ولكنها أكثر من ذلك .. ان عاطفة الأبوة بكل ما فيها من حنان ولهفة ، تغلبنى كلما ذكرته ..

ومضت عشرة شهور ..

وذات مساء كنت فى عيادتى .. وانهت من جلسة تحليلية مع احدى « الحالات » .. وما كادت « الحالة » تخرج من الحجرة ، حتى دخل مساعدى — وأنا لا أسميه التومرجى — وتعجبت لدخوله ، خصوصا وأنى لم أستدعه .. فالنظام فى عيادتى يقضى بأن أستريح لمدة عشر دقائق بين كل حالة وأخرى من الحالات التى تعرض على .. ثم تدخل الحالة التالية طبقا لكشف الزيارات الذى أوافق عليه قبلها بأسبوع .. فانى أضع ترتيب الحالات التى أعالجها أسبوعا بأسبوع ، نظرا لطول مدة الجلسة التى تستغرقها كل حالة .. ولم تجر العادة أن يدخل مساعدى على بين كل حالة وأخرى ، الا اذا استدعيته ، أو بعد أن تنتهى كل حالات اليوم فيدخل ليبلغنى بالمكالمات التليفونية ، أو بأى حدث آخر .. وكنت حريصا على هذا النظام ، ومساعدى حريص عليه أيضا ، ولم يحدث أن أدخل به طوال السنوات التى عمل فيها معى الا فى مناسبات نادرة ..

لذلك تعجبت عند ما دخل على مساعدى دون أن أستدعيه ،

ولذلك أيضا كان يبدو على وجهه التردد والاعتذار ، وهو يقدم
لى بطاقة صغيرة قائلا :

— صاحب هذه البطاقة يصبر على أن يقابلك حالا .. انه
يقول انه لم يأت للعلاج .. وأنه جاء من باماكو .. وبما أنى أعلم
أنك مهتم بوضع بحث عن افريقيا ، فقد اعتقدت أنك و ..
وقبل أن يتم كلامه اختطف البطاقة من يده فى لهفة ..
انه سامى ..

سامى نفسه ..

سامى الداعوق .. واسمه مكتوب على البطاقة باللفة
الفرنسية ..

وأخللت أنا الآخر بنظام عيادتى وطلبت من مساعدى أن
يدعو سامى للدخول على الفور ..

ووقفت أطلع الى باب غرفتى بعينين متلهفتين وخواطر
كثيرة تمر فى رأسى بسرعة ..

هل سأراه صاحب الوجه ، منكس الرأس ، ينظر الى بوز
حذائه ، كما تعودت أن أراه فى باماكو .. وهل سأسمع منه هذ
الكلام الكثير .. كلام بلا معنى .. ثم ما الذى جاء به الى
القاهرة .

وقلبى يخفق .. ولا أدري لماذا كنت أميل فى هذه اللحظة
العابرة الى التشاؤم ..

لقد خيل الى أنى سأرى سامى انسانا محطما .. منهكا ..

بل ربما دخل على وهو يعرج .. أو ذراعه مكسورة .. أو مشوه
الوجه ..

وفتح الباب ..

ودخل سامى ..

طويل .. قوى .. واثق من نفسه .. وجهه أشد اسمرارا
مما تعودته .. عيناه مستقرتان .. وابتهامة مرحة تهفز بين
شفتيه ..

ومددت له يدي مصافحا .. وقلبي فى يدي ..

ولكنه تجاهل يدي ، واحتضننى بين ذراعيه .. وأحسست
بنفس الرغبة فى ضمه الى صدرى .. كائى أضم ابنى الذى
اشتقت اليه ..

ثم سأله والسعادة بقلائه تملأ صدرى :

— كيف حالك ..

قال فى قوة :

— كما ترى فى أحسن حال ..

قال :

— والعائلة ؟

قال :

— كلهم بخير .. وكلهم يملغونك الحب والشوق ..

قلت :

— وسامية ؟

قال وهو يضحك فى خنان :

— انसानة أخرى .. انها لم تعد تكتفى بأعمال البيت ..
انها تشارك سليم فى أعمال الدكان .. تصور .. من كان يعتقد
أن سامية يمكن أن تفعل كل ذلك ..

وكدت أسأله فى لهفتى ، عن حال بيندا ، ولكنى تراجعجت
.. خفت ألا يكون هذا هو وقت السؤال عنها .. وسألته :

— ماذا جاء بك الى القاهرة .. انها مفاجأة ..

قال وهو يتسم :

— هذه قصة طويلة ..

ولم يكن لدى وقت لسماع القصص الطويلة ، فعدت أسأله :

— لقد أرسلت لكم خطابا ..

قال وهو يتسم :

— وصلنا ..

قلت :

— ولم ألتق ردا ..

قال وكأنه يرى شهوة الاستطلاع فى صدرى :

— هذه قصة طويلة أخرى ..

قلت وأنا فى لهفة لسماع هذه القصص الطويلة :

— اسمع .. ان أمامى ساعة أتنهى بعدها من عيادتى ..

ماذا تفعل هذا المساء ؟

قال :

— لا شيء .. لقد جيئت الى القاهرة خصيصا لألقاك ..

قلت :

— اذن ، اذهب وتجول في شوارع القاهرة ، أو اجلس في
محل جروبى المواجه للعيادة .. وعد الى بعد ساعة .. وسنتناول
العشاء سويا ..

ومد يده وصافحني في حرارة قائلا :

— اتفقنا ..

ولم يكذب يصل الى الباب حتى عاد والتفت الى قائلا وهو
يبتسم :

— انك لم تسألني عن ييندا .. انها تسلم عليك كثير
السلام !

وخرج ..

وأنا أنظر وراءه في دهشة ..

وبذلت مجهودا عنيفا حتى أنقلب على دهشتي ، وحتى
أحرر عقلي من الحواطر الكثيرة التي تتدفق فيه ، لأفرغ
لاستقبال الحالة التالية التي تنتظري في غرفة الانتظار ..

وعاد سامي بعد ساعة بالضبط .. وصحبته في سيارتي
وذهبنا الى بيتي في الزمالك ، لتناول العشاء .. وحرصت طول
هذا الوقت على أن يكون حديثنا عاما عن ذكريات باماكو ،
وعن القاهرة التي اصطدم سامي بضخامتها لأول مرة في حياته ..
لم أحاول في هذه الفترة أن أسأله عن هذه القصص الطويلة

التي أشار إليها .. كنت أريد أن أسمعها متكاملة متسلسلة دون أن يتدخلها رنين الشوك والسكاكين ونحن تناول العشاء .. وبعد العشاء ، جلسنا في غرفة مكتبي على مقعدين كبيرين ندخن ونشرب القهوة ، وقلت له في صوت متراخ كأني طفل يريد أن يسمع حكاية قبل أن ينام ، في حين أن عقلي كله منتبه كأنه يشب على أطرافه ليرى المشهد كاملا :
— والآن لنبدأ القصة من أولها ..

قال :

— من أين ؟

قلت :

— أين اختفيت بعد أن تركت غرفتي في الفندق .. في باماكو .. ولماذا لم تأت لوداعي ؟
واستراح في مقعده وهو ينظر أمامه كأنه يد عينيه ليصل الى باماكو ، وقال :

— أحسست يومها الى في حاجة الى أن أخلو الى نفسي .. كنت في حاجة الى أن أراجع قصة حياتي التي كنت أجهلها وأطلعتني عليها .. وكانت حقيقة الى من أم زنجية تقف في حلقى كالحجر .. وكنت في حاجة الى أن أبتلع هذا الحجر ، وأن أهضمه .. فأخذت بيندا وذهبت بها الى الغابة ، حتى أهضم الحجر في هدوء ..

قلت :

— لقد سألتنا عنك في القرية فلم نجدك ..

قال :

— لم نذهب أنا وبيندا الى القرية .. بل ذهبنا الى الجانب الآخر من النهر ، عند سفح جبل كولوبا .. تقس المكان الذى اجتبا فيه أبى وأمى عند ما تزوجا .. وعند ما ولدت .. وأقمنا هناك بين الأشجار كوخا من أكواخ الزوج ، اجتبا فيه ..

قلت :

— وكيف تحققت من المعلومات التى أدليت لك بها ..

قال :

— لم أحاول أن أتحقق منها .. كنت مقتنعا بأن ليس هناك سبب يدعو لك لأن تكذب على ، أو تفتزع قصة من خيالك .. كل ما هنالك أنى كنت أستزيد بيندا من التفاصيل .. أياما طويلة قضيتها وأنا أسألها عن أدق التفاصيل .. وكنت أحس دائما أن بيندا قريبة منى جدا .. قريبة من قلبى .. أحسست بأنى فعلا أحبها .. هذا الاحساس دفعنى لأن أصدق أنى تزوجتها عند ما كنت مزدوج الشخصية .. ودفعنى الى زيادة التسليم بكل التفاصيل التى أسمعها .. ولكنى كنت حائرا .. كنت مشلول العاطفة فيما عدا احساسى بحب بيندا .. لم أكن أستطيع أن أثور ، أو أن أهدأ .. أو أغضب أو أفرح بما أسمع .. مضت على أيام لم أكن أحس فيها بأنى انسان أبيض ، ولا بأنى انسان أسود ، ولا بأنى ماتيس .. كل ما بدأت أحس به هو أنى أريد أن أرى هذه المرأة التى اكتشفت أنها أمى .. لم أكن أيامها أحس نحوها بعاطفة الابن ، ولكنى كنت أريد أن أراها ،

كأنى أريد أن أرى لون دمي .. مجرد رغبة في الاستطلاع ..
 وكنت خائفا .. خائفا من أن أذهب اليها .. ومضى أكثر من
 خمسة عشر يوما .. وأنا متردد في الذهاب .. ثم ذهبت ..
 وسكت سامى ، وهو يتلع ريقه ، ونظرته ممدودة الى
 الأمام .. وظل فترة طويلة ساكنا .. وأنا ساكت بجانبه .. ثم
 قلت كأنى أفيقه من أحلامه :

— لقد كان الكاباكا يبحث عنك خلال هذه المدة .. وعن

بيندا ..

قال كأنه يحدث نفسه :

— أعتقد أنه عرف مخبأنا ، ولكنه لم يشأ أن يفرض ارادته
 علينا .. انه فيلسوف كبير .. تركنا الى أن نعود اليه بإرادتنا ..
 وقد عدنا .. صحت ذات صباح وأنا لا أطيق الانتظار حتى
 أرى أمى .. وأخذت بيندا وذهبتا الى القرية .. واستقبلتنا
 الكاباكا صامتا ، منتصبا أمامى كظلال الليل .. لم يتكلم .. لم
 يسألنى شيئا .. وأنا أنظر فى وجهه فأرى فيه أشياء كثيرة جديدة
 .. أرى فيه نفسى .. وأرى فيه بيندا .. وأرى فيه أمى .. انه خالى
 .. وتتمت وقلبي فى حلقى : « أين هى ؟ » .. وفهم الكاباكا
 ما أعنيه .. ومذ ذراعه القوى يشير بأصبعه نحو الكوخ الذى
 ترقد فيه أمى .. وتركنى أذهب اليها وحدى .. وبيندا تسير
 خلفى .. ودخلت الكوخ وركبتاى تخطيان عنى .. ترتمشان ..
 أكاد أقع فى كل خطوة .. ورأيتها .. كومة من العظام السوداء
 ملقاة على سرير جاف .. ولم أصدق أن هذه العظام هى أمى ..

لم أصدق .. لم أستطع أن أصدق .. ولكنها عند ما فتحت
 عينيها وصوبتهما الى ، رأيتها .. رأيت أمي .. رأيت طفولتي ..
 رأيت المرأة التي كانت تدلنني وتروي لي أساطير الزوج ..
 وشهقت أمي. عندما رأته .. ومدت ذراعيها الى .. عظمتان
 مكسوتان بالجلد الأسود .. وشفاتها ترتعشان بشدة .. كانت
 تناديني إليها .. الى صدرها .. وقاومت .. ولكني لم أستطع
 أن أقوم طويلا فألقيت نفسي بين ذراعيها ، فوق صدرها ، وأنا
 أهمس « أمي .. ماما » .. وأحاطتني بذراعيها وضمتني بشدة ،
 تصل الى حد أني تألمت .. قوة عجيبة كانت في ذراعيها اللتين
 تضماني .. كأنها جمعت كل حياتها فيهما حتى أبقى فوق صدرها
 الى الأبد .. ثم .. شعرت أنها همدت .. ألفاسها التي تهب على
 وجهي خمدت .. وتسمعت قلبها .. توقف .. ماتت .. ماتت أمي
 وأنا فوق صدرها .. وحاولت أن أعتدل في جلستي بجانبها ..
 ورغم أن الفزع من الموت قد أثار في قوة الانتفاض ، إلا أني
 لم أستطع أن أتنفض .. ذراعها كالتا متخشبتين حول ظهري ..
 لا أستطيع الفكك منهما .. تضماني الى صدرها الى الأبد ..
 صدر أمي ..

وسكت برهة يسبح دمة كبيرة انحدرت على خده ..

وسكت أنا احتراما لدمه ..

ثم قال وهو تنهد ويزفر حزنه :

— وجاءت بيندا وفكت ذراعي أمي من حولي ..

وأغمضت عينيها اللتين كاتتا تبخلقان في وجهي .. لكنني لازلت
أشعر حتى اليوم أن أمي تضمنني الى صدرها .. والى الأبد ..
واستطرد قائلاً وهو يحاول أن يبدد حزنه :

— ومن يومها عشت في القرية .. لم أتعهد أن أعيش فيها ..
ولم يدعني أحد كي أعيش فيها .. ولكنني بعد أن خرجت من
كوخ أمي .. شعرت أنني في قرنتي .. وعندما دخلت كوخ
الكتاباكا شعرت أنني أدخل بيتي .. كل شيء يبدو طبيعياً ..
والأهالي ينظرون الى بلا تعجب ، وبلا تساؤل ، كأنني واحد
منهم .. حتى طقوس الدفن الزوجية التي اتبعت عند دفن أمي
لم تبد لي غريبة ولا منفرة .. بل أثارت دموعي .. ثم مع الأيام
اكتشفت أنني أجيد لغة الولف .. ولم أكن أعلم أنني أجيدها الى
هذا الحد .. ثم اكتشفت أنني أستطيع أن أرقص كل رقصات
الزواج .. ولم أكن أعلم ذلك أيضاً .. عشت بين أهل أمي كأنني
عشت معهم طول عمري .. نسيت أنني أبيض .. ربما كانت بعض
تصرفات أهلي تذكرني بأني أبيض .. وربما كان بعضهم يعاملني
بنوع من التعالي المشوب بالاحتقار .. وربما كان بعضهم لا يزال
يغار مني لزواجي من بيندا .. ولكن مع الأيام اختفت هذه
التصرفات ، وضاعت هذه المعاملة .. ونسيت أنني نصف
أبيض ، ونسوا هم أيضاً ..

وسكت سامي ..

وقلت بسرعة :

— وسليم ؟

وقطب حاجبيه وقال فى صوت حزين كأنه يرثى أخاه :
 — لقد جاء سليم الى القرية عندما علم بوجودى فيها .
 ودعش عندما وجدلى أقيم بين الزوج وأنا فى حالة طبيعية ..
 لقد تعود ألا يرانى بينهم الا وأنا فى حالة ازدواج الشخصية ..
 وألح على فى أن أعود معه الى المدينة .. الى أهل أبى ..
 وترددت .. لم أسترح لفكرة العودة الى الحياة فى بيت أبى ..
 ورغم ذلك كان يجب أن أجرب .. فذهبت معه .. وتركت
 زوجتى بيندا فى القرية .. تركتها وهى تنظر الى بعينين مرعوبتين
 .. خافت أن أكون قد عدت الى حالتى السابقة .. حالة مرضى ..
 وطأتهما .. وذهبت .. عشت مع سامية وسليم أسبوعا ،
 حاولت فيه أن أكون طبيعيا .. أن أهدأ .. أن أستريح .. أن
 أقنع نفسى أن هذه دليلى .. ورغم أن أحدا من كل المجتمع
 الأبيض لم يكن يعلم بقصتى .. سامية نفسها لم تكن تعلم ..
 الا أن المشكلة كانت فى نفسى .. ووجدت نفسى أواجه مشكلة
 الاختيار .. يجب أن أختار دليلى .. يجب أن أختار بين المدينة
 والقرية .. يجب أن أختار بين أهل أبى ، وأهل أمى .. واخترت
 .. عدت الى القرية .. الى دليلى .. واتفقت مع سليم على أن
 أبقى فيها .. وبقيت ..

وابتسمت ابتسامة كبيرة ، ونظر الى فى تعجب قائلا ولهجنه
 البنائية تضج بين شفثيه :

— لماذا تبسم يا دكتور .. ألا تصدقنى ؟

قلت وأنا أضحك :

— بالعكس .. انى أصدقك جدا .. لقد ذكرت الآن نتيجة بحث طويل كنت أعده ..

قال فى دهشة :

— أى بحث ؟

قلت :

— لقد قدرت أن مشكلة الاختيار ستواجهك .. ولأنك عرفت حقيقتك وأنت كامل الإرادة ، فقد استطعت أن تختار .. أما الأولاد المخطون الذين يواجهون المشكلة وهم أطفال ، فانهم يفقدون القدرة على الاختيار ، ويضطرون الى الوقوف فى الوسط .. وهكذا تكون مجتمع المائيس ..

قال مبتسما :

— إن كل شئ تسمعه ، تحوله الى نظرية علمية ..

قلت :

— هذه مهنتى !

وبدا سامى يشعل سيجارة ، وتسجلته قائلا فى لهفة :

— ماذا حدث بعد ذلك ؟

وهز كتفيه فى استخفاف قائلا :

— طردلى الفرنسيون ..

قلت فى دهشة :

— طردوك ! طردوك من أين ؟

قال :

— من جميع مستعمراتهم ..

قلت :

لماذا ؟

قال :

— لأنى طالبت بحقوق أهلى .. لقد بدأت المشكلة عندما علمت أن شبان القرية يعملون فى احدى مزارع الفرنسيين بأجر أقل من ربع أجر العامل الأبيض .. أقل من ربع أجرى أنا .. أجر لا يكاد يفى بضمن الخبز .. فذهبت الى صاحب المزرعة وحاولت اقناعه بأن يدفع لهم أجرا كاملا .. حاولت اقناعه بكل الحجج المنطقية .. ولكنه رفض أن يقتنع .. وطردنى .. وقال عنى أنى مجنون .. وفى اليوم التالى نظمت مظاهرة جماعية من عمال المزرعة .. ذهبت بهم كلهم الى صاحب المزرعة .. ولكنه لم يقتنع .. ورفع سماعة التليفون واستدعى البوليس فجاء وقبض على كل العمال .. سجنوا .. وضربوا .. وتركونى أنا لأنهم اعتقدوا أنى لست منهم .. واغتنطت .. اغتنطت لأنه لم يقبض على كبقية أهل أمة .. وانتظرت الى أن جاء صاحب المزرعة بعمال آخرين ، فحرضتهم على الاضراب ، الى أن ترفع أجورهم .. ولكنهم اندفعوا فى ثورتهم وحطموا مكاتب المزرعة ، وأتلفوا كمية صغيرة من المحاصيل .. كمية صغيرة جدا ، ولكنها كانت تكفى لاعداد عشرة منهم .. والحكم على الباقين بالسجن .. وفى هذه المرة سجنتم معهم .. ولكنهم أفرجوا عنى بعد أسبوعين .. ودهشت للافراج عنى .. ثم علمت أن سليم قدم رشاوى لضباط البوليس للافراج عنى ..

قلت في دهشة :

— هل كان سليم مشتركا معك ..

قال :

— لا .. لقد كان بعيدا عني .. وكنت أحرص على أن أبقيه

بعيدا عني .. فلم يكن مؤمنا بما أفعل ، وكان حريصا على صالح تجارته .. ولذلك لم يرد سليم على رسالتك .. خشى أن يقرأ الرقيب الفرنسي رده ، ويعتقد أنه يقوم باتصالات سياسية مع القاهرة .. خصوصا وأنه كان موضوعا تحت المراقبة .. لأنه أخى .. ولأنه لم يتخل أبدا عن حبه لى ..

قلت وأنا أبتسم :

— لقد تصورت كل الأسباب لعدم الرد على رسالتي .

الا هذا السبب ..

واستطرد سامي قائلا :

— لقد خرجت من السجن وأنا مقتنع بأن لا أمل في أن يأخذ أهلى .. أهل أمى .. حقوقهم الا اذا خرج الفرنسيون .. فبدأت أشتغل في السياسة .. في الثورة .. وانضمت الى الحزب الديمقراطي الاشتراكي .. وأقنعت الكاباكا بالانضمام اليه .. كل أفراد القبيلة انضموا الى الحزب ، وأصبحنا نمثل داخله جناحا ثوريا قويا .. وكنت أقف وأخطب وسط الزوج . وكنت أشترك معهم في حملات التخريب .. وعرف كل الوطنيين اسمي .. في كل أنحاء السودان الفرنسي .. وكانوا يسمونني

« سامو » .. وأجلدت الاختباء من البوليس .. ولكنهم قبضو
على أخيرا بعد أن خانتى أحد الجواسيس الزوج .. ان الخيانة
في كل المجتمعات .. فلماذا لا تكون بين الزوج .. وبسرعة .
في خلال ثلاث ساعات أمر الفرنسيون بترحيلي .. بطردى من
افريقيا كلها ..

وسكت سامى برهة ثم قال فى أسى :
— لقد رحلت دون أن أودع بيندا .. لم يسمحوا لى
بتوديعها ..

ثم رفع رأسه الى وقال مبتسما :
— أتعرف أن بيندا حامل ؟
قلت فى فرح صادق :
— مبروك .. أرجو أن يكون ولدا كأييه ..
قال وهو يتسم :
— أو بنتا كيبيندا ..
وسكتنا نحن الاثنان كأننا نحى على البعد بيندا .. ثم
سألته :

— هل ستبقى فى القاهرة طويلا ؟
قال :
— يومين فقط .. ثم أستمز فى طريقى الى لبنان .. هناك
أهل أبى ..
ثم ابتسم مستطردا :

— كان يجب أن أمر على القاهرة لأراك .. أنت الذى
اكتشفتنى !
قلت فى صدق :
— أنت الذى اكتشفت نفسك .. عندما اخترت مجتمعك ..

وقضى سامى يومين فى ضيافتى ، ثم ذهب أودعه فى المطار ،
وقلت وأنا أشد على يده :
— أرجو أن تعود الى بيندا قريباً .. لترى ابنك ..
قال فى إيمان :
— سأعود قريباً .. بعد أن يخرج الفرنسيون .. بعد أن
نتتصر .. وانتصارنا أقرب مما تتصور .. سنتتصر قبل أن يولد
ابنى .. اننا قوة هائلة ..
وكان يعنى الزواج ..

تمت



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال
إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل - ومازلنا
نتشبت بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن
ومكتبة في كل بيت.

شبّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة
الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضيء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب
في متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية
وتتبعها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتضن في كل العالم الثالث،
ومازلت أحلم بالمزيد من لآلئ الإبداع الفكري والأدبي والعلمي تترسخ في
وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر
التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزا

Bibliotheca Alexandrina



0338840



مائة وخمسون قرشاً

١٩٩٨

مهرجان القراءة للجميع

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب